العدد التاسع، نيسان 2020

المعاونية الثقافية
وحدة الدراسات والمتون الثقافية

الرصد الثقافي

نشرة دورية تعنى برصد القضايا والأخبار الثقافية

جائحة كورونا التداعيات الثقافية والاجتماعية

إعداد: مركز المعارف للدراسات الثقافية 2020

الـرصـــد الثقافـيّ

نشرة داخليّة دوريّة تُعنى برصد القضايا والأخبار الثقافيّة

تصدر عن مركز المعارف للدراسات الثقافيّة

دار المعارف الإسلامية الثقافية

الكتاب: **الرصد الثقافيّ (9)**

إعداد: **مركز المعارف للدراسات الثقافيَّة**

تصميم وطباعة: DBOUK 009613336218

almaaref.center. cs@gmail.com
00961 01 467 547
00961 76 960 347

لا يتبنّى المركز جميع الآراء الواردة في المقالات
والأبحاث والكتب والأخبار المنشورة في هذا التقرير

العدد التاسع، نيسان 2020

المعاونيَّـــة الثقافيَّـــة
وحدة الدراسات والمتون الثقافيَّة

عدد خاص (2)

الـرصـــد الثقافـيّ

نشرة دوريَّة تُعنى برصد القضايا والأخبار الثقافيَّة
تصدر عن مركز المعارف للدراسات الثقافيَّة

إعداد: مركز المعارف للدراسات الثقافيَّة 2020

الفهرس

المقدِّمة 7

كورونا ومأزق الأنصاف 9

المثقّف كأداة للبروبغاندا، في زمن كورونا 13

ميشيل مافيزولي: أزمة فيروس كورونا أو العودة الكبرى للتراجيديا 17

الحرية أم الصحة؟ فلاسفة فرنسا منقسمون حول عالم ما بعد الجائحة 21

في زمنِ الوباء: الحماقةُ وظيفةٌ وحيدة للفلسفة؟..... 25

الديانة النيوليبرالية وخطاب دعاتها المأزوم! 29

كورونا والجرح النرجسي..سؤال المركزية الغربية: كورونا أطلَّ ليلفت الأنظار إلى أنّ مركزاً جديداً يلوح في الأفق 31

الخوف ذو الوجهين في زمن الكورونا: كورونا وسيولة الخوف 35

فيروس كورونا والعودة إلى تصوّراتنا البدائية 39

تأويليّة الوباء والتوظيف الأيديولوجي 44

الجزائر اليوم: فيلو-كورونا كوفيد 19 50

في نقد مقولة تغيرات العالم الكبرى بعد «كورونا» 56

عربي 21: أي عالم بعد كورونا؟..... 61

«نيويورك تايمز» الأوروبيون فقدوا الإيمان بالقيادة الأميركية للعالم 68

دروس كورونا وإعادة ترتيب الأخلاق من الطموح الفردي إلى الصالح العام 75

المقدِّمة:

يعكسُ ما يتضمّنه هذا التقريرُ جوانبَ من النقاشات الدائرة في الفضاءات الفكريّة والفلسفية، التي دخلَ بعضُها في حوار وجوديّ مع الذات، غلب عليه التأمّل في مآل الحاضر، في ظلِّ القسوة الشديدة التي تمارسُها الحربُ التي يشنّها «كورونا» بلا هوادة، ضد نرجسيّة الإنسان، بخاصّة في الغرب، الذي دعا «فلاسفته»، من عجزٍ، إلى مواجهة الداء بالداء، وإلى التعايش مع الموت، إلى تقبّله وتدجينه، حتى يصيرَ محفّز للعيش «بشكل أكثر كثافة»، ما يدفع إلى السؤال، مجدّد، عمّن سيتحمّل مرّة أخرى، أكلاف أن يعيش الغربيّ «بشكلٍ أكثرَ كثافة».

وإلى أن تضع حربُ كورونا أوزارها، تبدو البشرية، كأنها بُوغتت بسطوة هذا الفيروس وعناده، وتمثّلت صدمتها بعجزها عن الإمساك بسب بمنطقي يفسّر ما يجري، في خضمِّ حالةٍ كونية فوق استثنائية، أدّتْ إلى عجز الأنساقِ اللّغوية الكبرى، وشلَّت قدرتَها على فهمِ وتفسيرِ ومعالجة ما يجري، وهو ما دفع بالمفكّر المصري نبيل عبد الفتاح إلى مخاطبة منظومة التفكير الغربي، وسؤالها بنبرة حادّة، وشامتة ربّما، عمّا «حدث للعقول الكبرى العالمة، وميراثها النقدي والفلسفي والتحليلي في المجتمعات الأكثر تقدّمًا؟»

ثمّة من المفكرين في الغرب من أجاب عن هذا السؤال، فرأى أنّ جائحة كورونا ستقودُ العالم حتماً إلى مرحلة جديدة يشهدُ معها «انهيار الحضارة اليهودية

المسيحية»، وجهرَ آخر بأنّه خائفٌ على «حريّته» من أن يخطفها «كورونا» أكثر من خوفه من الموت نفسه.

وثمّة، من حذّر من سيولة الخوف وسرعة وسعة انتشاره وتداعيات ذلك على البشريّة، مُحمّلًا وسائل التواصل الاجتماعي مسؤولية نشر هذا الخوف، ليخلصَ إلى أنّ «المعلوماتِ الرقميةَ هي أكثر الأمراض المعدية الآن على كوكب الأرض»، ليناقضه آخر بالقول بأنّ «نشر الذعر، في بعض الأحيان، أكثر حكمة من النظر للأمور فلسفيًا»، داعيًا إلى الاعتراف بحدود التفلسف، أو حتى تأجيل البحث الفلسفي في ما يجري، وإلى تنحية الفلسفة «لصالح الحرص في مثل هذه الظروف».

تلكَ عيّنةٌ من النقاش الجاري في الغرب، وتدلُّ على هولِ الصّدمة، وحال الذهول التي أصابت منظومة التفكير الغربي في الصميم، فخرجَت أصواتٌ معتبرة تحمّل النيوليبرالية المسؤولية الكاملة عن جرح كورونا الذي لن يلتئم بسهولة، وعن ذلك الفراغ الذي سيصيب مركزية الغرب بمقتل من دون أن يعلمَ أحدٌ كيف سيتمّ تدبير الفراغ ما بعد الانهيار، وما القوى الجديدة التي يمكنها الاضطلاع بقيادة عالم الغد، وما إذا كانت البشرية ستتيه لفترة من الزمن في فوضى ما قبل تشكل عالم متعدّد الأقطاب؟

مركز المعارف للدراسات الثقافية

كورونا ومأزق الأنصاف[1]

يدافع كاتب المقالة إدريس مقبول، عن دور الدين الحاسم في أوقات الجوائح والخوف، وينتقد بشدّة من يصفهم بأنصاف المتعلّمين، في حقلي الدين والعلم، ممّن يسيئون إلى هذا الدور، فلم يحسِنوا تظهيرَه بوصفِه باعثاً على الشعور بالطمأنينة والسلام، وشحنةً روحيّة تخفِّفُ من حدة ما يعانيه الإنسان من الآلام النفسية والجسدية.

يقول الكاتب إنَّ الخطورةَ على الناس لا تأتي، في الظرف الراهن، إلّا من الأنصاف، حتى لو أشهرَ هؤلاء الشّهادات الورقيّة، لأنهم يتصرفون باستعلاء أصمّ، «متحذلقون» بعبارة أفلاطون، يعمّمون الأوهام على أنّها حقائق، ويُفهِمون الناس من حولهم بمنطق بدائي بسيط؛ منطق الأبيضِ أو الأسود، وينسون أن الطبيعة فيها أكثر من لون، فيضيق نظر هؤلاء في حلال أو حرام، ويضيق نظر أولئك في مرئي وغير مرئي، والحالُ أن مجاري الحكم كما يقول الأصوليون في الدين أوسع من القِسمين، وأنّ اختزال العالم بمنظور وضعاني في مرئي موجود ولامرئي معدوم سخافة، كما يقرّر ميرلوبونتي في كتابيه «العين والعقل» و«المرئي واللامرئي».

(1) إدريس مقبول، مركز بن غازي للأبحاث والدراسات الاستراتيجية، 2020/3/31.

يضيف الكاتب، بأنّنا لا نرى كل شيء، وهذه هي الحقيقة. ولهذا كان الاتجاه الماديّ الحسيّ «المتعملق» مجانِباً للصّواب في تشويه العالم وتقليصِ فرصِ التأمّلِ الفلسفي للموضوعات. إنّ الأنصاف من الفريقين في الواقع «منتحلون للصناعة» بعبارة ابن خلدون، ويسيؤون للناس وللموضوعات بسبب تنكّبهم طريق الدين الحقّ وطريق العِلم، ومن حظّنا العاثر أنّنا اليوم مصابون بجائحتين؛ جائحة كورونا وهذه أخفُّ في الميزان، وجائحة الكائنات النِّصفيّة، وهذه أثقل الجوائح وأفتكها.

بحسبِ مقبول، فإنّ كِلا الفريقين مشغولٌ اليوم بأسئلة مغلوطة، لأن كلَّ واحد منهما يقتاتُ من ريعِ ما يشغل به الجمهور ويلهيه عن أداء دوره. فأنصاف المتعلّمين في حقل الدين، وأكثرهم وعاظ وخطباء، وللأسف لا يميّز الناس بين خطيب وعالم، ومن طريق هؤلاء الوعاظ والخطباء دخلت طوامُّ الموضوعات والأحاديث الباطلة عبر التاريخ إلى ثقافة الناس، ينشطون عند الأزمات في تفزيع الناس وبثّ الرّعب ومشاعرِ اليأس في نفوسهم بأحاديث وأخبار واهية أكثرها لا يصح، لا تُقدِّم سوى وجهٍ غضوبٍ مكفهرّ للدّين، يزرعُ في النّاس الخوفَ ويشلُّ كلَّ طاقةٍ وقدرة فيهم على الإدراك والمقاومة، والحالُ أنّ البشرية محتاجة في لحظاتها العصيبة لمن يبعث فيها خطاب الدين التذكيري المتنورّ، الذي يحمل الأمل والبشارة والرجاء في الله ورحمته التي وسعت كل شيء، وقد وسِعَتْ الكافر والمؤمن.

يؤكّد مقبول على دور الإيمان في المساعدة على رفع مناعة الإنسان في مواجهة صدمات الحياة وانكساراتها، لأنّ الإيمان يعمل، كما يرى، إلى جانب الأدوية الموصوفة، على التقليل من إفراز هرمونات التوتّر والضغط، ويجعل الإنسان أكثر تقبّلاً لأوضاعه ورضىً بأحواله ومشكلاته، ولا شك أنّ للدين دورٌ في تغيير

كيمياء الدماغ البشري في اتجاه الشعور بالطمأنينة والسلام والتخفيف من حدة ما يعانيه من الآلام النفسيّة والجسديّة، وهو أمر يعرفه علماء نفس الألم والمختصّون في الطب التكاملي.

هذه المعطيات لا يستسيغها فريقٌ من المتكلّمِين باسم العلم وممّن يخاصمون الدّين في كل حين وبلا مناسبة، ممّن صارَ تخصّصهم إحياء صراعات سوداء باسم العلم، صراعات من القرون الوسطى، تضع العِلم وجهاً لوجه مع الإيمان، وتحيي تقابلاً حدّياً بين العلماء والمؤمنين، وكأن كلَّ عالِمٍ يُفترضُ به أن يكونَ ملحداً، وأنّ كلَّ مؤمنٍ مكتوب عليه أن يكون جاهلاً معادياً للعلم.

لكنّ الكائنات النّصفية في الحقلين مشغولةٌ بأسئلتها المغلوطة، ولم تفهم لحد الساعة أنه لا تعارض بين الدين والعلم إلا في الأذهان الكليلة، كما لم تفهم أنّ لِكُلٍّ حدودَه ووظائِفَه، وأنّ البشريةَ محتاجةٌ لهما معاً، وأنّ أحدهما لا يقوم مقام الآخر، وأنّه لا توزانَ لوجودنا كبشر ولا سلامَ ولا صَحةً إلا بتكاملهما وقيام كلِّ واحدٍ منهما بوظيفته؛ لأنّ كل واحد منهما جاء للجواب عن أسئلة مختلفة للكائن البشري، ولسنا ندري كيف نبتت هذه العداوة في عقول بعضهم كما ينبت النبات الشوكي في شقوق الأحجار، والحال أنّ فن الطبّ هو من العلوم النبيلة في نظر الدين، ويكفي أنّ الشافعي الذي وضع أصول الفقه لتنظيم اشتغال العقل المسلم قال: لا أعلم علماً بعد الحلال والحرام أنبلُ من الطّب.

إنّ ما يجبُ أن يتّضحَ في الأذهان هو أنّ الأديان لم تأت لتقدم لقاحاً لفيروس أو دواءً لمرض مزمن، أو تصف للناس عقاقيرَ لآلامهم الجسدية، كما يحاجج بعض السطحيين ويتحدّى في سفسطة سخيفة، وإنّما وظيفتها تقديم لقاح ضد أمراض العدمية والإلحاد واللامعنى. فاللقاح الذي جاءت الأديان لتقديمه للإنسان، ليأخذه بإرادة وحرية دون إكراه أو غصب، هو لقاح ضد الجهل بالله أو ضد

القلق الذي تفرزه تجربة الحياة حين تكون بلا غاية، فحق الإنسان الأعظم هو حقه في أن يعرف خالقه ومآله بعد الموت، والحاجة ملحة «للمطلق»؛ لأنّه هو وحده الكفيل بمنع حياتنا من الوقوع في السيولة والتلاشي واللامعنى، وهو وحده الذي يمنحنا الإيمان بأنّ ثمة قيماً مطلقة، ومركزية «المطلق» في هذا المنظور المركّب تدفع في اتجاه يتجاوز المنظورات الخطية والحدية.

المصل الذي يقدّمه الدين هو مصل الأفق المملوء بالله ضد فزاعة الفراغ التي تستبعد الأبدية والخلود الذي تمنحه الأديان، وتجعل، أي فزّاعة الفراغ، تاريخ البشر خالياً من أي غاية أو معنى كما يقول فرنكل في كتابه «أزمة الإنسان الحديث، يقدّم الدين المصلَ ضِدَّ عبودية البشر في أنظمة شمولية أبديّة تسلب الناس كرامتهم وحقوقهم، وضد عبوديات أخرى، لا تنتهي، تختزل وجودنا في «كائن مستهلك» أو «كائن مضارب» أو مجرّد مادة استعمالية كما يقول المسيري؛ تحاصرنا اليوم عبوديات بلا حصر.. عبودية السوق وعبودية الربح وعبودية الشهرة وعبودية الموضة وعبودية البورصة في أنظمة ليبرالية متوحّشة لا تلقي بالاً للإنسان المحتاج ولا لآلامه على حافات الجوع والمرض...

يخلص الكاتب إلى القول بأنّ الإسلامَ الذي هو دين الله، هو توجيه مِعياريٌّ يريد أن يكونّ الإنسانُ أخاً مواسياً لأخيه الإنسان، ينفتح على الإنسانية؛ ليمد لها اليد والعون، ويسارع للإسعاف وتقاسم مواد الحياة مع كل البشر، ويبشّر بباب عريض مفتوح للأمل، إنّه أمل عودة الطابع القدسي لهذه الحياة عبر مصالحة الذات الموجودة مع الوجود ومع خالق الوجود، أو لنقل بعبارة هيدغر عبر «عودة السحر لعالمٍ فقد سحرَهُ ومعناه».

المثقّف كأداة للبروبغاندا، في زمن كورونا[1]

يرى علي عاشور[2]، أنَّ بعضَ المثقفين العرب، ومعجَبِيهم، يتداولون في أثناء الحديثِ عن النّهايات في أزمةِ الوباء الحالية، جُملاً مثل «نهاية الرأسمالية الغربية» أو « نهاية السّيطرة الغربية» أو « نهاية المنظومة الرأسمالية» وغيرها من «النهايات» والخلاصات المتسرّعة والمقدّمة بلا تحليل ولا قراءة تتناول المشهد الغربيّ، فضلاً عنه المشهد العالمي، كأن حماسة الأفكار اليسارية التقليدية، والقومية، من ستينات وسبعينات القرن الماضي، بما تحمله من بروبغاندا قدّمتها المنظومات الإعلامية للاتحاد السوفياتي وحلفائه، إضافةً إلى بروبغاندا الأيديولوجيا الأمريكية المضادة آن ذاك، قد عادت لتنتعشَ في العالمِ الحديث، الذي يختلفُ بطبيعته عن طبيعة البيئة التي خرجت منها تلك الأفكار.

يعتقدُ عاشور أن هذا النوع من المثقفين سقطَ، مع جمهوره في فخ البروبغاندا المتصارعة، دونَ التأنّي في قراءة المشهدِ والتمهّل في تحليل المعلومات والبيانات، والوثائق، «غير المتوفّرة حالياً»، والقيام بتتبّع تدريجيّ للتغطيات الإعلامية منذ انتشار الوباء في مدينة ووهان. كأنَّ ما كان يدعو له المثقّف من تأنٍّ وتمعّنٍ في قراءةِ الكتب، بقيَ محصوراً في الكتب، وانساق هو نفسه في عجلةِ المغترّ يلقِي أحكاماً تتناسبُ مع تحيّزاتِه، المُعْلَنةِ حيناً وغيرِ المُعلَنةِ حيناً آخر، وإبراز ما تراكم

(1) موقع جدليّة، https://www.jadaliyya.com/Details/40889 2020--/4/3

(2) الكاتب علي عاشور، شاعر وصحفي سعودي مستقل، مقيم في كندا. .

من قراءات وأُمنِيات في ذهنيّةِ العداء للمستعمر والمتحكّم الغربي.

يجدُ عاشور، أنّ الكثير من العرب والمسلمين، وبعض المثقفين بشكل خاص، قد اعتبروا بأنّ ما أعلنته الصين هو الجوابُ الأرجحُ، إن لم يكن الحقيقة، بما يتعلّق بالأسباب التي تقف وراء انتشار الفايروس. ومن ذات المنطلق، قام البعض باستعادة الحسّ الأيديولوجي ضد الرأسمالية التقليدية ليسقطها على المنظومة الاقتصادية الحالية من جانب، وعلى المؤسّسات السياسية الغربية من جانب آخر. كما حرّضَ ذلك الكثير من المتديّنين على بدء الإعلان عن هشاشة العالم المادي وقوة العالم الروحي، وكأنّ الجميع اكتشف وأدرك ما حدث، وتنبّأ بما سيحدث، خلال فترة وجيزة!

يتفقُ الكاتب مع من يقول بأنّ المأزق الراهن سينقل العالم إلى مرحلة جديدة، لكن ليس بالطريقة الدرامية المصوّرة، وليس على المستويين الاقتصادي والسياسي فقط، أو كما يدّعي البعض بأنّ قوىً جديدة ستفرض سيطرتها على العالم؛ ما سوف يحصل، بحسب الكاتب، هو أنّنا سننتقل جميعاً إلى مرحلة جديدة على مستوى التواصل ونقل المعلومات، وتأمينِ المنظمات السياسية والاقتصادية من السقوط، لا بشكلها الصُّوَريّ الحاليّ بل بقواعدِها التأسيسيّة.

فما يخيفُ في الأزمة الحالية، التي تواجهها البشرية، ليس عدم القدرة على الحدّ من انتشار الوباء بأسرع ما يمكن، فقط، بل عدم القدرة على مواجهة السيل الهائل من البروبغاندا والمعلومات الخاطئة والإحصائيات التي توضع في غير محلّها، حيثُ يمكن استغلال الإحصائية الصحيحة في نقل الرسالة والمعلومة الخاطئة؛ ما يخيفُ في عملية نشرِ المعلومات إلكترونياً « ليس نشر الأكاذيب، بل نشر المعلومات الصحيحة في السياق الخاطئ».

ينقل عاشور عن البروفيسور والمفكّر الأمريكي «شارلز سيف» في كتابه «الواقع الافتراضي» Virtual Unreality «أنّ المعلومات الرقمية هي أكثر الأمراض المعدية الآن على كوكب الأرض». ولا يبالغ شارلز في وصفه ذاك أبداً، بحسب عاشور، بل يمكن القول بأنّه أدقُّ وصفٍ يصوّرُ لنا الوضع الذي نعيشه الآن؛ لأنّ الإنسان يريد البقاء، بشكل أو بآخر، في منطقة آمنة داخلياً، توفّر له البروبغاندا التي تنعش تحيّزاته وتُوجِّهها هذه المنطقة، كما تعطيه وفرة المعلومات وتدفّقها، العشوائي، شعوراً بتمكنّه من الوصول إلى الإجابات المنشودة.

إنّ وقوعَ الكثير من المثقفين في فخ البروبغاندا الحديثة لا يتوقّف عند استرجاع وتحفيز أثر المتراكم فقط، فعاملُ سهولةِ وصول الناس إلى المعلومات، وسهولة إرسال المعلومات إلى الناس، يشكّل خطورةً في توجيه هؤلاء الناس من خلال المعلومات، وخطورة عملهم كفاعل في توجيه وتشويه المعلومات من ناحية أخرى، أكثر منه تهديداً للأنظمة السياسية القائمة.

من هنا يشير شارلز إلى أنّ «ظهور نسخ رقمية معلوماتية رخيصة ومثالية، أدّى إلى تدمير الطريقة التي نفكّر فيها كبشر بشأن المعلومات». لم تعد عدم وفرة المعلومات للإنسان هي المشكلة اليوم، بل فيضانها الذي غيّر طريقة التفكير والتركيز. فكأنّما قرّرَ الإنسانُ خوضَ السباق مع المعلومات وسرعتها عبر تناولها والتفاعل السريع معها، مهملاً أدوات القراءة، ومنها التدقيقُ والفحصُ والتّأكد والتفكير والتأمل.

يخلصُ عاشور إلى القول: بقدر ما تحتاج هذه المرحلة إلى الانعزال عن المجتمع واتباع تعليمات المنظمات الصحية والانتظار، فإنها تحتاج أيضاً إلى التأنّي في قراءتها والنفاذ إلى ما وراء المشهد. فخوض سباق مع الكم الهائل من المعلومات

هو سباق خاسر بالضرورة. وفي سياقنا الحالي، هذا ما تفعله البروبغاندا عن طريق من وقع في شراكها. وفي ذكر الحقائق والوقائع، هناك حقيقة واحدة في الوقت الحالي، وهي أنّنا لا نعرف الكثير عما حدث، ولا نعرف ما يخبئه المستقبل القريب، والبعيد.

ميشيل مافيزولي: أزمة فيروس كورونا أو العودة الكبرى للتراجيديا[1]

يرى الفيلسوف الفرنسي المعروف ميشيل مافيزولي[2]، وهو كاتب هذه المقالة، أنّه لا يمكن أبداً أن نقول، إنّنا نشهدُ أفولاً حتمياً للحداثة، مع أنّنا نشهد، بالفعل، نهايةَ عالمٍ، تتجلّى فيه، هذه النهاية، بشكل يومي في انحطاطٍ فكري، سياسي واجتماعي، تبدو أعراضُه واضحةً بشكل متزايد. يصف مافيزولي هذا الانحطاط بأنّه انحطاط الأسطورة التقدميّة، بعد أن تمّ استخدامُ النزعةِ التقدّمية، وأيديولوجيا الخدمة العمومية، لتبريرِ الهيمنةِ على الطّبيعة، وتهميشِ قوانينِها الأساسية، وبناءِ مجتمعٍ قائمٍ على مبادئ النزعةِ العقلانيّةِ المجرّدة وحدها، تلك العقلانية التي يبدو مظهرُها المَرضي أكثر وضوحاً، لتمثّلَ معها ما تُسمّى بالإصلاحات «المجتمعية» (الزواج للجميع، الحمل للآخرين، الإنجاب بمساعدة طبية، وما إلى ذلك) صوراً كاريكاتورية لذلك المرض.

يعتقدُ مافيزولي أنّ أساس الإيديولوجيا التقدّمية هو الطموح، والتظاهرِ بالقدرةِ على إيجادِ حلٍّ لكل شيء، وتحسين كل شيء، من أجل تحقيقِ مجتمع مثالي، وإنسان يكون محتملَ الخلود. ويضيف: سواء كنّا نعرف ذلك أم لا، فإنّ

(1) 2020 - 04-16-07-58-09 موقع أنفاس، الكاتب : ميشيل مافيزولي/ ترجمة: محمد بعدي/ الخميس 16 إبريل 2020

https://anfaspress.com/news/voir/64159

(2) أستاذ بجامعة السوربون الخامسة، وهو يعتبر أحد علماء الاجتماع والمفكّرين الذين منحوا لليومي والصورة والمتخيل موقعاً نظرياً في علم الاجتماع، وتعتمد أبحاثه على تفاعل نظري بين الأنثروبولوجيا والفلسفة والنظريات السوسيولوجية التي تعطى للرمزي موقعاً متميزاً في التحليل، ترجمت العديد من مؤلفاته للغات أوروبية كثيرة.

جدليّة: الأطروحة، النقيض، ثم التركيب هي الآلية الفكرية المهيمنة راهناً في الغرب. ذلك أنّ المفهوم الهيغلي «للتجاوز» هو شعار الميثولوجيا[1] التقدّمية، وبالمعنى الدقيق للكلمة، هو تصوّر دراميٌّ للعالم قائمٌ على الاعتقادِ بالقدرةِ على اجتراح الحلول واتخاذ قرارات تؤدّي إلى الكمال في المستقبل.

يستشهدُ الكاتب بصيغة كارل ماركس، التي تقول بأنّ «الإنسانية لا تطرح أبداً إلا المشكلات التي تستطيع حلها»، ويعتبر أنّ هذه الصيغة تلخّصُ بشكل جيد مثل هذه الميثولوجيا، وتلخّص الطموح، والتظاهر بالقدرة على التحكّم بكل شيء. ويضيف، سواء أردنا الاعتراف بذلك أم لا، فإنّه يوجد الآن يسارٌ ويمينٌ ممتزِجَين، و«مركسة» (إضفاء الطابع الماركسي) حقيقية لأنماط الفكر. فالنخبة الحديثة: السياسيون والصحافيون ومختلف الخبراء، هي نخبة ملوّثة بادّعاء جنون العظمة إلى حد ما، وبأنّه في مستقبل قريب، سوف نتمكّن من تحقيقِ مجتمع مثالي!

هذا التصوّر الدرامي، وبالتالي المتفائل، هو الذي يقترب، كما يقول مافيزولي، من نهايته. ويضيف: إنّه في التأرجحِ الصّارمِ للتاريخ البشري، يميلُ الشعور بتراجيدية الحياة إلى أنّ يسودَ من جديد. فالدرامي بحسب مافيزولي، تفاؤلي بالتأكيد، والتراجيدي يتضمّن إحراجاً، أي أنّه بدون حل، فتصيرُ الحياةِ ما هي عليه، بمعنى أنّه بدلاً من إرادة السيطرة على الطبيعة، ينبغي أن نتوافق معها. لذلك، ووفقاً لذلك ليسَ الموت هو ما يمكننا تجاوزه، لكنّه ما ينبغي التوافق معه، وهذا ما تذكرنا به، بشكل رئيس، «الأزمة الصحية» الراهنة.

فالموت الوبائي، كما يرى مافيزولي، هو رمز نهاية النزعة التفاؤلية الخاصة بالنزعة التقدّمية الحديثة، ويمكن النظر إليه على أنه تعبير عن استشعار، روحي

(1) الأسطورة.

إلى حد ما، بأن نهاية حضارة ما يمكن أن تكون خلاصاً، وفي معناه القوي، فهو علامة على ولادة جديدة، ما يشير إلى استمرارية نزعة حيوية أساسية!

إنّ الموتَ المحتمل، والتهديدَ المعاش يومياً، هو واقع لا يمكن أن ننكره، ولم يعد بإمكاننا أن ننكره، والموت الذي نكون مجبرين حتماً على أن نقوم بإحصائه، المنتشر في كل مكان، يذكرنا من خلال طابعه الملموس بأنّ نظاماً للأشياء يقترب من النهاية.

إنّ ما هو ملموس، برأي مافيزولي، هو ما «ينمو» مع واقع لا يمكن دحضه. وهذا الواقع هو موت «نظام الأشياء» الذي شكّل العالم الحديث! إنّه موتُ النزعةِ الاقتصاديةِ المهيمنة، وموتُ هذا التغليبِ للبنيةِ التّحتية الاقتصادية التي هي سببُ وأثرُ النزعة المادية قصيرة النظر.

إنّه موتُ تصوّرٍ فرداني خالصٍ للوجود؛ لأنَّ مِنَ المؤكّدِ أنّ النخبَ القديمةَ ستستمر في إنتاج التفاهات التي من نوع «مراعاةِ النّزعةِ الفردانية المعاصرة»، وترّهات أخرى مشابهة. لكن القلق من النهاية، وهي النهاية التي لم يعد من الممكنِ إخفاءُ واقعها، والتي تحضُّ، على العكس من ذلك، على التماس المساعدة المتبادلة، والمشاركة، والتبادل، والتطوّع، وعلى قيم أخرى على شاكلتها، التي كانت النزعة المادية الحديثة تعتقد أنّها تجاوزتها.

وبوضوح أكبر، فالأزمة الصحية تشير إلى موتِ العولمة، باعتبارها القيمة المهيمنة لنخبة مهووسة بسوق بلا قيود، وبلا حدود حيث هنا أيضاً، ينتصرُ الشّيء على الذات، والماديُّ على الروحي.

يخلص مافيزولي إلى القول بأنّ التصوّرَ «الدرامي» يكون خاصّاً بنخبةِ تعتقد أنّها تستطيعُ إيجادَ حلٍّ مناسب لكل شيء، أما «التراجيدي»، فهو على العكس تماماً، يتوافق مع الموت. إنّه يعرف، من خلال معرفة مندمجة وخاصة بالحكمة

الشعبية، كيف يعيش الموت كل يوم. وهكذا تكون الأزمة الصحية التي تجلب الموت الفردي علامة على أزمة حضارية، وهي الأزمة المتعلّقة بموت البارادیغم (الأنموذج) التقدّمي الذي كان له شأن. ولعل هذا ما يجعل البيئة التراجيدية، المعاشة في الحياة اليومية، أبعد ما تكون عن الكآبة، وعلى وعيٍ بأنّها في قيامة مستمرة. تلك القيامة التي، من خلال الوجود- في كليته، ومن خلال الوجود- مع، ومن خلال المرئي الاجتماعي، «سيحتل فيها الروحي غير المرئي مكانا للاختيار».

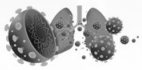

الحرية أم الصحة؟

فلاسفة فرنسا منقسمون حول عالم ما بعد الجائحة[1]

لم يقتصر تأثير جائحة كورونا على أجهزة تنفّس المصابين بالفيروس المستجد، وإنّما تجاوزت هذه الجائحة الآثـارَ الصّحيةَ لتسببَ موجةً من التحوّلات الاجتماعية والثقافية الهائلة، وتفتحُ البابَ واسعاً أمامَ مراجعات فكريّة، ونقد ذاتي غربيّ غير مسبوق.

انخرط مفكّرو فرنسا، ومثقّفوها المعاصرون، في المراجعات التي شملت فلاسفة وعلماء اجتماع ومثقّفين وكتّاب، وبدا واضحاً أنّ هؤلاء لم يجمعوا على رأي واحد، بخصوص مأزق كورونا. فبينما استحضر الفيلسوف الفرنسي «برونو لاتور» ما أطلق عليه بـ «المبدأ الوقائي»، حذّر عالم الاجتماعي التسعيني إدغار موران ممّا أسماه «الهوس بالربح»، كما حذّر مؤرّخ الفلسفة «أندريه كومت-سبونفيل» من أن «يحلَّ النظام الصحي محل النظام الأخلاقي».

في تقرير له في صحيفة لاستامبا الإيطالية اعتبر الكاتب «باولو مودونيو» أنّ السؤال الإيكولوجي (البيئي) وبشكل خاص «مبدأ الحيطة» -أي النهج الذي يدافع عن حماية البيئة والصحة حتى في غياب اليقين العلمي المطلق- هو في قلب المناقشات الفكرية الفرنسية في مرحلة ما بعد كورونا، وأنّ هناك من يذهب مذهب الفيلسوف الفرنسي «برونو لاتور» ويشدّدون على أهمية

(1)الصحافة الفرنسية، الصحافة الإيطالية، الجزيرة
https://www.aljazeera.net/news/cultureandart/2020

المسألة البيئية، وهناك من جهة أخرى أصوات أكثر «واقعية» و«ليبرالية»، مثل الفيلسوف «أندريه كومبت-سبونفيل»، تعارض «الرؤية الطبية الشاملة» وتحذر من مخاطر تفويض إدارة حياتنا ومجتمعاتنا للأطباء والخبراء.

أما الفيلسوف وعالم الاجتماع «لاتور» فقد أطلق نداء لتعزيز ما أسماه «كوابح العولمة» والتخلّي عن الإنتاج «باعتباره المبدأ الوحيد الناظم للعلاقات في العالم». ورداً على السؤال الذي يفرضه المنطق السليم وهو: هل يجب أن تعود دوامة الإنتاج إلى سابق عهدها؟ قال المثقف الباريسي: « لا على الإطلاق.. آخر شيء نحتاج القيام به هو أن نفعل بالضبط ما فعلناه من قبل».

وعلى المنوال نفسه، يهاجم الفيلسوف «إدغار موران» في مقابلة مع صحيفة لوموند العقيدة الليبرالية و«الهوس بالربح»، ويقول: إنّ «الهوس بالربح» مسؤول في المقام الأول عن «خضوع النظام الصحي لمنطق الأعمال وعن إفقار ذلك النظام». يأمل موران أن يتبلور «مسار سياسي إيكولوجي اقتصادي اجتماعي جديد تحكمه نزعة إنسانية متجدّدة»، بمجرّد انتهاء الوباء. ويرى أنّ من شأن هذه «الطريقة الجديدة» التي أفرزتها الأزمة الكونية أن «تسلّط الضوء على وحدة المصير لجميع البشر، في ارتباط لا ينفصم عن المصير البيولوجي البيئي لكوكب الأرض»، وهذا من شأنه، برأيه، أن يضاعف «الإصلاحات الحقيقية التي تمس الحضارة والمجتمع ونمط الحياة».

ويعتقد موران أنّ تطوّرات الاقتصاد الرأسمالي هي التي خلقت المشاكل الكبرى التي يواجهها الكوكب الآن، مثل تدمير البيئة والأزمة العامة في الأنظمة الديمقراطية، وتزايد التفاوت الطبقي وغياب العدالة بين الناس، والتسابق نحو التسلّح وصعود الأحزاب والشخصيات الاستبدادية والديماغوجية، مثلما يحدث في الولايات المتحدة والبرازيل.

من جهته أثـار الفيلسوف الفرنسي «ميشيل أونـفـري» موجة من التعليقات والجدل، عندما اعتبر أنّ جائحة فيروس كورونا المستجد ستشكّل مرحلة جديدة في «انهيار الحضارة اليهودية المسيحية» بحسب التحليل الذي قدّمه في كتابه «الانحطاط»، وأفاد أونفري بأنّ هذا الفيروس يندرج ضمن حركة هذا الانهيار. ويرى أونفري، في حوار أجراه مع مجلة لوبوان أنّ الجائحة أظهرت أنّ «الاقتصاد الليبرالي جعل من الربح غاية جميع السياسات ومنتهاها، وأنّه «لا يمكن إنكار حقيقة أنّ الفيروس عرّى الخيارات الاقتصادية الليبرالية».

في مقابل تلك المقاربات ينتقد أندريه كومبت-سبونفيل الرؤية السائدة في فرنسا التي تعلي من شأن الصحة على حساب الحرية، ويعبّر عن خشيته أنّ «يحل النظام الصحي محل النظام الأخلاقي»، وأن يغرق الجميع في منطق «الصحيح صحياً» كما غرقنا سابقاً في منطق «الصحيح سياسياً». وينقل أندريه كومبت-سبونفيل عن الفيلسوف ميشيل دو مونتين قوله إنّ «الصحة تمثّل ميزة، وربما حتى ميزة عليا، ولكنّها ليست قيمة يجب أن تنظّم مجتمعاتنا وقراراتنا السياسية».

وفي مقابلة مع صحيفة لوتان البلجيكية بعنوان «دعونا نموت كما نريد»، يناقش كومبت-سبونفيل علاقتنا بالموت، ويدعونا إلى قبول الموت ووضعه في الاعتبار من أجل «العيش بشكل أكثر كثافة» واتباع تعاليم الكاتب الفرنسي المشهور من عصر النهضة ميشيل دو مونتين (توفي 1592) مرة أخرى، قائلاً: إنّ «الغرض من الوجود ليس تجنّب الألم بل الاستفادة من الحياة والابتهاج بها». يشعر كومت-سبونفيل بأنّه خائف على حريّته أكثر من خوفه من الموت، وأنّ أكثر ما يقلقه في هذه الأزمة هو حقيقة أنّ الشباب هم «الذين يدفعون

أثقل الضرائب على شكل بطالة أو ديون»، معتبراً أنّ «التضحية بالشباب باسم صحة المسنين انحراف». أما ألان توران، الذي يُعدُّ اليوم أهمَّ عالمِ اجتماع فرنسي فتحدّث لصحيفة إلباييس الإسبانية عن أنّ « العالم يعيشُ حالة فراغ دون نقاش أو تحرّك أو فهم.»

في زمنِ الوباء: الحماقةُ وظيفةٌ وحيدة للفلسفة؟[1]

في حوارها مع موقع «دويتشي فيله»، تقول الفيلسوفة الألمانية، «سفينيا فلسبولار»: إنّ «الشّلل الكامل الذي جلبه كورونا يعطينا فرصة لنفكر»، وتستشهد في هذا الإطار بالرياضي والفليسوف الفرنسي، باسكال الذي يقول إنّ: «معظم البؤس البشري ينبع من عدم قدرة الإنسان على الجلوس في غرفة لوحده هادئاً»، وبعدها تستشهد بهيدغر، الذي يقول:» حين يجلس المرء في حجرته محاطاً بالموت، يستطيع أن يكتشف طبيعته الحقيقية». تعدّد فلسبولار الامتيازات التي تتمتّع بها اليوم كمثقفة، فهي ليست مضطرة للعمل في سوبر ماركت أو في مستشفى مزدحم، كما أنّها ليست عرضة للإصابة بالعدوى، كما تقول، فهي قد انسحبت إلى الريف حيث تفكّر.

تشير فلسبولار في حوارها مع مجلة «دويتشي فيله» إلى أن الوضع القائم اليوم يشكّل فرصة للتفكير «الوجودي»، أي مواجهة الفرد لنفسه ولحقيقة الفناء، وتتحدّث ضمناً عن نوع آخر من أنواع إعمال العقل، وهو التفكير، التفكير كتخصّص، كوظيفة اجتماعية، ما يحيلُ إلى مبدأ تقسيم العمل في المجتمع، حيث تواجه الطواقم الطبية وعمال المتاجر مخاطر العدوى، فيما يتولّى أساتذة الفلسفة، «محبي الحكمة»، وظيفتهم البديهية، أي التفكير، بشكل أكثر تجريداً، ومنهجية، وبتأنٍ، نيابة عن المجتمع.

(1) المدن، شادي لويس، كاتب وباحث مصري. 2020/4/3

تأتي تلك المهمة التكنوقراطية بامتيازاتها الخاصة، وبمسؤولياتها أيضاً، فكما سارع المتخصّصون في الحقل الإبداعي مثلاً إلى التراث الأدبي والفنّي، لتقديم مادة لجمهورهم صالحة لزمن الوباء، لفهمه أو لاستساغته، أو حتى للاستمتاع به رغم وطأته، فإنّ خبراء الفلسفة وجدوا أنفسهم في وضع مشابه، وإن كانوا ربما أكثر جهوزية.

فقرة عن تفشي الطاعون من كتاب ميشال فوكو «المراقبة والعقاب»، كانت الأكثر ترداداً واقتباساً، في الحوار مع «فلسبولار»، وبالأخص ذلك المشهد الذي يغلق فيه السكان الأبواب على أنفسهم، ويسلّمون المفاتيح إلى مسؤولي الأحياء، المُعَيَّنين من حكومةِ المدينة.

كان لدى عدد من المتخصّصين في الفلسفة الأخلاقية الكثير ليقولوه عن الموازنة بين المصلحة العامة والحفاظ على الحياة الخاصة، وعن الأولويات، وعن المدى الذي يمكن للمجتمع أن يذهبَ إليه لينقذَ حياة واحدة، لتسارع وسائلُ الإعلامِ الجماهيرية، والدّوريات الفلسفيّة إلى استكتابِ المتخصّصِين، وإجراء الحوارات مع الأسماء اللامعة بينهم.

لم يتوافر الكثير من الوقت للتأمّل، لكنّ الفلسفة مجال للأحكام العامة. يكتب ديفيد هارفي، الاقتصادي والمنظّر الاجتماعي الماركسي، مقالاً دقيقاً لتشريح الأزمة، أصولها ومآلاتها. بدا النص من الحصافة بشكل يدعو إلى القلق، كون أزمة الوباء تؤكّد كل شيء قاله هارفي من قبل، وما نعرفه من مدرسته في التحليل. لم يكن هارفي وحده، ففي كل مقال مماثل أو حوار، « كان يمكن حشر الحدث الطارئ للكورونا داخل إطار نظري جاهز ومعروف، وبلا مشقة كبيرة».

وكالعادة، يدلي سلافوي جيجيك، بالعدد الأكبر من التصريحات، وتتوالى مقالاته عن الأمر، في حوار هاتفي، يعدّد الفيلسوف المعاصر الأكثر جماهيرية،

«ما يحبّه بخصوص الكورونا»، وفي مقال آخر يحدّثنا عن «الحاجة للكارثة»، فبعد عامين من حضه على «شجاعة اليأس»، تبدو نبرته شديدة التفاؤل. فالوقت الآن برأيه هو الأكثر مناسبة لتطبيق «الشيوعية»، ويعود ليفسّر في مقال آخر، ما يعنيه، فهي ليست شيوعية الإتحاد السوفياتي بالطبع، لكنها نوع اشتراكي من التضامن في وجه الخطر الذي نواجهه. لكن سريعاً يتضح أن ما يعنيه بـ«نحن» ليس البشرية، بل أوروبا تحديداً، ويدعوها جيجيك للتعامل مع الأمر بصفته «حرباً»، ويضيف إن «موجة ثانية من اللاجئين» بالتوازي مع الوباء هي ما لا تحتاجه أوروبا. يتبنّى جيجك، كعادته، الأفكار الأكثر إثارة للجدل، بلغةٍ تقترب إلى الحماقة أكثر من أي شيء آخر، حماقة تضع الفيروسات في كفة مقابلة للاجئين، الإثنان كخطر وجودي على أوروبا، أحدهما عضوي والآخر ثقافي، وفي خضم الحرب الطارئة ضدهما، ومن وسط الكارثة، تبزغ الشيوعية (بوصفها تضامناً أوروبياً حصرياً).

الزوبعة الأكبر يثيرها الفيلسوف الإيطالي، جورجيو أغامبين.الذي يستنكر أن نتنازل عن كل حقوقنا، وكل ما هو اجتماعي، لصالح إنقاذ «حياة مجرّدة»، أي مجرّد بقائنا العضوي. تبدو مخاوف أغامبين مفهومة، ولا تخلو من المنطق، أن تكون حالة الاستثناء هي الوضع الطبيعي، هذا هو الخطر الأكبر. فالذعر المحيط بالوباء واستغلاله لصالح السلطوية، تبدو تبعاته، برأي أغامبين، أكثر فداحة من انتشار الفيروس. ولا يمرّ الكثير من الوقت، حتى يمنح البرلمان المجري، رئيس الوزراء، سلطات مطلقة وطارئة، ومن دون سقف زمني. الاستثناء حقاً يضحى هو الطبيعي، والصحف الأوروبية تعلن الديموقراطية في المجر واحدة من ضحايا كورونا.

لكنّ الخطر الذي يمثّله الوباء أيضاً حقيقي وفادح، بالقدر نفسه. يرد

الفيلسوف الإيطالي، سيرجي بينفنيتو، على أغامبين في مقال له بعنوان «مرحباً بالعزلة»، ويقول: «في بعض الأحيان، نشر الذعر أكثر حكمة من النظر للأمور فلسفياً».

ما يطرحه بينفنيتو هنا، ليس دحضاً لمنطق أغامبين، بقدر ما هو اعتراف بحدود التفلسف، دعوة لتنحية الفلسفة لصالح الحرص في مثل هذه الظروف، «فالمرء لا يمكن أن يكون حريصاً أكثر من اللازم» كما يقال بالإنكليزية.

لكن، برأي كاتب المقالة : أغامبين، وجيجيك بشكل أكثر تشوهاً، يصران على ممارسة واحدة من وظائف الفلسفة في هذا اللحظة، وظيفة لا تتعلّق بالحكمة في الحقيقة، بل بالحماقة، بالتفوّه بأكثر الأشياء سخافة وتهوراً، ومعارضة المتفق عليه، ومحاولة لفت الانتباه للثغرات والتناقضات الصغيرة والشوائب، والأخطار في أكثر الإجراءات أماناً، والفرص الممكنة في أكثر الأحداث مأساوية، بهدف استفزاز الجميع، بهدف التشكيك في ما هو بدهي، وبالأخص في أكثر الأمور بداهة.

يختم الكاتب في ما يشبه الحكم، على فلاسفة أوروبا اليوم، بالقول: «من حسن الحظ أنّ أحداً لا يأتمن الفلاسفة على اتخاذ القرارات المصيرية، وأنّ عادة الحكم عليهم بالموت بتجرّع السمّ توقّفت منذ زمن».

الديانة النيوليبرالية وخطاب دعاتها المأزوم[1]!

يرى نبيل عبد الفتاح أنّه في ظلِّ عالم يسيطر عليه الذعر والخوف الكوني من فيروس يحملُ بعضاً من غموضِه وتحوّلاتِه وتمدّداته يَطرحُ الموتُ والعدمُ المحلّقُ، أسئلةً وإشكاليات فلسفية ودينية معقّدة، ويفتح الباب واسعاً لإعادة النظر فى عديد المقاربات والأنساق الفلسفية والسوسيولوجية واللاهوتية والفقهية الموروثة، وشروحاتها التاريخية على متونها التأسيسية، ومدى قدرتها على تفسير الوجود الإنساني والعقلِ الحداثي النقدي، والعقلِ ما بعد الحداثي، وما بعد بعده. ويطرح أيضاً مدى قدرةِ هذه المنظومات من المفاهيم والنظريّات والآلات الاصطلاحية، على فهم الوجود الإنسانيّ، وقوانينِه ومصيرِه، والحياة على كوكبنا، ويمتد العجزُ والشللُ الذى أصاب العقل من المفاهيم والسرديات الكبرى والصغرى التى انهار بعضُها منذ عقود، إلى مفاهيم الحقيقة المطلقة والنسبية.

يرى عبد الفتاح أنّنا في خضمّ حالةٍ كونية فوق استثنائية، أدّتْ إلى عجز الأنساقِ اللّغوية الكبرى وقدرتِها على فهمِ وتفسيرِ ومعالجة ما حدث للعقول الكبرى العالمة، وميراثها النقدى والفلسفي والتحليلي في المجتمعات الأكثر تقدماً.

البعض صمت، فى محاولة لاستيعاب الصدمة، وقلّة حاولت إبداء آرائها، مثل هنري كيسنجر، وسلافوى جيجيك، وادجار موران، وجاك آتالي، وآلان باديو، وأجمبين، وآخرين من كبار الاقتصاديين، والتكنوقراط من موظّفي المنظمات

(1) الأهرام، 2020/4/9.

الدولية، وخطابات قادة الطبقات السياسية الحاكمة، وبعض الشعبويين. لكن غالب هؤلاء استخدموا لغة الترويع والخوف والحرب ضد الوباء، سلوك أقرب إلى اللعبة السياسية التى ترمي إلى بث الطمأنينة والسكينة إلى مواطنيهم فى مفردات اللغة والمجازات النرجسيّة التى تمجّد الذات القومية الأمريكية، وفى ذات الوقت والسياقات تتغيّر لغة القائد الشعبوي الجمهوري ورجل الأعمال الكوني، من يوم لآخر، في استخدامه لمفردات تُشيع الخوفَ والهلع. سياقات كونية تكشف عن تناقضات واضطراب وفوضى الخطاب السياسى فى الإمبراطورية التى أدمنت الطبقة السياسية فيها تمجيد ذاتها، واقتصادها، ونمط حياتها، وعبقرية علمائها ومراكز بحوثها، وقيمها العليا وأخلاقياتها المتفرّدة، ونظامها السياسى الديمقراطي الفذ، ودورها الرائد فى عالمنا.: نرجسية شعبوية ولا أخلاقية فى ظل الخوف الكوني والموت المحلق مع تمدّد «كوفيد 19»، حيث يحاول الخطاب السياسى المذعور استخدام الأرقام، وبلايين الدولارات، والوعود بكسر الفيروس الخفي، وتصعيد اللغة والمفردات العنصرية.

كورونا والجرح النرجسي..سؤال المركزية الغربية

كورونا أطلَّ ليلفت الأنظار إلى أنّ مركزاً جديداً يلوح في الأفق[1]

يسأل كاتب المقالة، إدريس هاني[2]، في بداية مقالته: «من كان يتوقّع أنّ جسيماً صغيراً سيكون له دور تاريخي في زحزحة المركزية الغربية بعد الكشف عن هشاشة المركز؟ ويجيب: لا أحد!.

يقول هاني: «إنّ المركزية الغربية أحاطت نفسها بأساطير حديثة تشبه الأساطير الأولى؛ حيث المركز هو الحاضر والمتقدّم بقوة الهيمنة الاقتصادية والتفوّق العسكري والتّطور التّقني. لكن أطلّ كورونا برأسه من ووهان - واحدة من أكبر المناطق الصينية من حيث التمركز الصناعي- ليلفت الأنظار إلى أنّ مركزاً جديداً يلوح في الأفق، حيث استقطب الأنظار حول القوة الاقتصادية الجديدة والتفوّق التقني في احتواء المرض.

بدأ الغرب يفقد آخر عناصر تفوّقه، لقد ضربَ الطاعون المركزيةَ الغربيّةَ وزعزعَ أركانها وأصبح العالم بفضل كورونا على قناعة بأنّ البشرية تتجه نحو نظام عالمي جديد بأقطاب متعدّدة، لكن الأهمّ هو أنّ المركزية الغربية بدأت تسلم مفاتيح قيادة النظام العالم الجديد لقوى جديدة وسيكون لآسيا والشّرق دور في تشكيل عالم الغد.

(1) موقع المحور، 2020/4/8.

(2) كاتب ومفكر مغربي.

يقول الكاتب: قريباً سيُتاح لنا تأويل أساطير عصر المركزية الغربية، وسندرك أنّ العالم دخل في موجة حداثية مختلفة، حداثة تقوم على توسيع مجال الشراكة، حداثة تنفتح على الإمكانات التي استبعدتها أساطير المركزية الغربية عبر أنماط الاحتكارات والهيمنة الإمبريالية، حداثة تخرج من عوائقها الذّاتية ومجالها الاحتكاري وإثنيتها. سيُتاح لنا تأويل أكثر من أربعةِ قرونٍ من الأساطير التي لم يكن العالم في حاجة إليها بقدر ما كانَ الغربُ في حاجة إليها لتعزيزِ فكرةِ أنّ «العقل للغرب والقلب للشّرق» وأنّهما في نهاية المطاف لا يلتقيان، سندرك أنّ أقطاباً جديدة في هذا العالم أعادتنا إلى الحدث «البروميثيوسي»[1] وبأنّ كورونا قد يكون هو ذلك الشّر الذي أطلقه «صندوق باندورا» ليُلاحق من اقتبسوا من نار المركزية الغربية قبساً في لعبة الاستقطاب الممنوع.

يضيفُ هاني: خلال السنوات الماضية عشنا بداية تهاوي المراكز والأقطاب والأساطير، وفي السياق ذاته كانت هناك قوى تنشأ في سديم هذا الصّراع، كانت المركزية الغربية مكسباً غير قابل للانزياح، وكان نيرون متشبّثاً بهذه المركزية حدّ الجنون، ونشأت على هامش ذلك أفكار وتيارات وإيديولوجيات عنصرية وتصنيفيّة، وقامت حروب واحتلالات وغزو، وكلّ ما حدث كان يرعى على هذه المركزية.. لكن كان هناك لكل مركز هامش وهامش الهامش، لا يوجد هامش مباشر، والعالم الثالث لم يكن يوماً هامشاً مباشراً بل كان على مدى التاريخ بمثابة هامش الهامش، فالمركز «المركزي» يوجد في الولايات المتحدة الأمريكية بينما الهامش المباشر هو أوروبا، وداخل أوروبا يوجد هامش الهامش، أي سائر الدول الأوربية الجنوبية مثل إيطاليا، إسبانيا، اليونان.. إلخ، إلى أن نصل إلى

(1) تعد قصة بروميثيوس واحدة من أهم القصص في الميثولوجيا الغربية إن لم تكن أهمها على الإطلاق. القصة ترمز لمضامين ودلالات هائلة في الفكر والتاريخ الغربي. كان بروميثيوس واحداً من حكماء التايتن. وكان أسمه يعني «بعيد النظر»، وكان يمتلك المقدرة على التنبؤ بالمستقبل. (ويكيبيديا).

هامش الهوامش، وكل هامش بالنسبة لمن تحته يشكّل مركزاً، وكل مركز بالنسبة لما فوقه يشكّل هامشاً مباشراً، وعند الجوائح تتعرّى حقيقة هذه الهرارشية[1] (أي التصنيفات الهامشية المذكورة) فيتحلّل المركز من هوامشه المباشرة ويلوذ بالفرار.

أظهر فيروس كورونا أنّ إيطاليا وإسبانيا وقبل ذلك اليونان في جائحته الاقتصادية ما هي سوى هوامش متقدّمة إزاء مركز المراكز الغربية، التي كسر كورونا «كبرياءها»، وستكون لهذا الانكسار آثار تراجيدية على الغرب خلال الحقبة القادمة؛ لأنّ انزياح المركزيات له أثر كبير على مسار تاريخ الحضارات، وإذا كان «فرويد» قد استطاع تحديد الجروح النرجسية التي توالت على العالم -الجروح الثلاثة التي أطاحت بمركزية الأرض (كوبرنيكوس) ومركزية الإنسان (شارل داروين) ومركزية الشعور (فرويد)- فإنّ هذه الجروح ليست جديدة ولا محصورة في هذه النماذج الثلاثة، يمكننا الحديث عن جروح أخرى بعضها أقدم وبعضها حديث وأحدث، بعضها أدركته البشرية وبعضها لم تدركه وبالتالي لم تتأثّر به وحوصرَ داخل نخبة محدودة، وليس ها هنا مورد التفصيل في ذلك، لكن يمكننا القول إنّ كورونا شكّل جرحاً نرجسياً استهدف مركزية الغرب في الصميم.

ويضيف هاني، لا شكّ أنّنا أمام جائحة تضرب العالم ولا تميّز بين الأقطار، غير أنّ ضررَ الغربِ سيفوق ضرر العالم الثالث.. ثمة جائحتان: كورونا وانهيار المركزية الغربية.. كورونا يصيب الإنسان في سائر بلاد العالم في جهازه الصّحي، لكنّه في الغرب يطيح بهيكله التّاريخي.

علينا أن ندرك مسبقاً أنّ سقوط الأساطير الكبرى وانهيار المركزيات العظمى

(1) التراتبية.

ليس حدثاً هيّناً في التّاريخ، إنّ تداعيات انحطاط الغرب ستكون مَهولة، وفي هذا المستوى الحضاري الكبير لا نتحدّث عن انتصارات حيث إنّ تداعيات الحدث ستكون مكلفة للجميع، ولكنه ثمن التغيير والتّحوّل العالمي ونتاج صراع طويل.

والحضارات الكبرى والقوى العظمى يقترن سقوطها بحدث مفارق، يلعب الجنون دوراً كبيراً، وأيضاً الميكروبات التي تعمل على تسوّس أركان الإمبراطوريات، فلا ننسى حماقات نيرون، وكيف كان يعزف على أنقاض روما.. لا أحد سيهضم هذا الانهيار، ولكّنه سيقع، وهو حتمية تاريخية تمنح فرصة لانبعاث الهامش الذي سيكشف عن مهارات كامنة، عن طاقات متجدّدة، غير أنّ ما نشاهده حتى اليوم لا يكفي لرسم ملامح مستقبل أفضل من خلال المؤشّرات المتوفرة.

انهيار المركزية الغربية أمر وارد، غير أنّ الأسئلة التي تُطرح: ماذا بعد سقوط المركزية الغربية.. وما السيناريوهات القادمة.. وما البدائل.. وما استحقاقات هذا الانهيار الحتمي؟.. كورونا يجعل الصورة واضحة حول إمكانية انهيار المركزية الغربية، فحتى لو استطاع الغرب اكتشاف اللقاح فهذا يعطي العالم صورة عن الانهيار المتوقّع لهذه المركزية، سيكون الجرح النرجسي هذه المرة خاصاً بالمركزية الغربية وليس جرحاً للعالم.

العالم يتوقّع هذا الانهيار اليوم أكثر من أي وقت مضى، لكن لا أحد يتوقّع كيف سيتمّ تدبير الفراغ ما بعد الانهيار، وما القوى الجديدة التي تستطيع الاضطلاع بقيادة عالم الغد، أم إنّ البشرية ستتيه لفترة من الزمن في فوضى ماقبل تشكل عالم متعدد الأقطاب.

الخوف ذو الوجهين في زمن الكورونا[1]

كورونا وسيولة الخوف

تتحدّث أسماء عبد العزيز[2] عماّ عانته البشرية عبر تاريخها من أوبئة، وكيف ارتبطت العلاقة، على مدى قرون عديدة، بين الأوبئة والبشر بالخوف والذعر، وهو ما يحصل اليوم مع جائحة فيروس كورونا، حيث ولدّ تزايد أعداد الإصابات بالفيروس خوفاً من تفشيه على نطاقات أوسع؛ ليتصدّر هذا الخوف المشهد عموماً؛ وليصبح شعوراً مسيطراً على كل فرد: الخوف من العدوى، الخوف من التحية الجسدية والاتصال البشري، الخوف من الآخرين وعلى الآخرين، الخوف من الموت، الخوف من الملامح الآسيوية، الخوف من الجهل، الخوف من العزلة، الخوف من انهيار أنظمة الرعاية الصحية، الخوف من الأشياء والأسطح، الخوف من وصمة العار للأوبئة، الخوف من التلوث، والخوف من المجهول.

خلق الوباء معه حال من الخوف السائل، فلم يعد يقتصر الأمر على أنه حالة بيولوجية صحية، بل تعدّى ذلك ليكون ظاهرة ثقافية أو روحية، أو كتجربة إنسانية فريدة من نوعها، سوف يتحدّث عنها الجميع لاحقًا، لمدة زمنية ليست بالقصيرة، وبتعريف «زيجموند باومان» للخوف السائل، في كتابه المعنون بالاسم

(1) مؤمنون بلا حدود، موقع ثقافي متميّز مدعوم من الإمارات وله فروع في أكثر من بلد عربي بينها الأردن وتونس. 2020/4/24

(2) أسماء عبد العزيز ، باحثة مصرية متخصصة في الإعلام، مهتمة بالإعلام الرقمي ووسائل التواصل الاجتماعي.

نفسه، «هي الحال التي تتحوّل فيها المخاوف إلى ما يشبه الحال السائلة، بل أقرب إلى الحال الغازية، حيث يتسرّب الخوف، ويسيل وينتشر حولنا في كل مكان».

وعن تحليله للخوف يتساءل باومان: «كيف استطاعت الحداثة توزيع المخاوف الكبرى على تفاصيل الحياة اليومية؟، كيف يمكننا التعايش مع كل هذا الشر سوى بإنكار وجوده، أو إنكار مسؤوليتنا عنه؟ فالخوف يمحو المعالم الأساسية للحياة المتحضرة في لحظة، وفي ظل كل هذا الخوف السائل من كل شيء، والذي يستبيح كل شيء، يشعر الفرد بأن مواجهة التهديدات والمخاطر هي مهمته هو»، حيث تفوّق الخوف على علاقتنا بكل ما يحيط بنا، بالأشياء والأشخاص، وفنّد وهم الهيمنة والسيطرة وإخضاع الماديات، ليتسرّب إلى حال من الضبابية واللايقين نحو كل شيء وأي شيء، وهو في حد ذاته تطبيق حيّ لأفكار «باومان»، فعلى حد تعبيره «سيولة الخوف تعني أنه لا يمكن الشعور بالأمان طوال الوقت، حتى مع أقرب الناس إليك».

انسحب الخوف على كل ما يحيط بنا مادّيًا كان أو معنويًا، انسحب على علاقتنا بالأشياء والأسطح المحيطة، وجعلنا نتصرّف معها بطريقة مغايرة، بل ننظر إليها بطريقة مغايرة، ليس كما اعتدنا على النظر إليها من قبل، تسرّب نحو الأشخاص المحيطين، نحو العائدين من السفر، نحو الملامح الآسيوية، نحو الماديات، كأكياس البقالة والنفايات، والارتياب من التعامل مع الأوراق النقدية، أو لمس مقابض أبواب المنزل والسيارة والمكتب، أو شاشات التلفاز، وأصبح كل ما اعتاد عليه إنسان الحداثة يظن أنه تحت سيطرته الكاملة، يتسرّب ويسيل منه شيئًا فشيئًا، وهو ما يعكس مفهوم سيولة الخوف.

ولهذا تدعو عبد العزيز إلى ضرورة «إدارة الخوف»، وتقول: إنّ «إدارة

الخوف» مبدأ موجود لدى جميع الكائنات الحيّة، وينظر إليه كمورد لـ «تصحيح المسار» وتوحيد العالم. لكن ومع الاستكانة لوسائل التواصل الاجتماعي، خاصة في أوقات حظر التجوال كبديل للتواصل الاجتماعي المفقود واقعيًا، انغمس الأفراد في متابعة بيانات ومعلومات لا حصر لها عن الفيروس، ليجد الفرد نفسه في حلقة مفرغة لا نهائية للهروب من الخوف إلى الخوف، مع إعادة تدوير الخوف بأشكال أخرى.

وقد ساهمت، في البيئة الافتراضية، مواقع التواصل الاجتماعي في اختلال إدارة الخوف، ما أدى إلى استجابات «غير اعتيادية»، والترويج لردود أفعال شاذة، والتأثير السلبي على الصحة العقلية؛ وبالنظر إلى تاريخ البشرية مع الأوبئة، فإن ردّ الفعل المفرط أمر محتوم في بدايته؛ فالبشر مشبعون بالخوف وفي صراع دائم معه، ومع تعرّض البشر لموجات متتالية وهزات وجودية، وبتعبئة مستمرة من وسائل التواصل الاجتماعي، لا يتم تداول المبادرات الحقيقية الداعمة، بوتيرة تداول الأحداث الغريبة نفسها والمقلقة والشاذة؛ لأنه ببساطة يعكس سياسة خوارزميات منصّات وسائل التواصل، حيث تقف الخوارزميات كقوة مرعبة خلف عالم السوشيال ميديا الذي نغرق فيه، ليتضحَ أنّ « المشكلة ليست في المحتوى والأخبار المزيفة، بل في الخوارزميات السيئة»، وهو ما ينتج الخوف ذي الوجهين.

يتسبّب هذا الاختلال في تدابير حماية قد تخرج عن السيطرة، وهو ما ينسحب على مقولة «فيكتور فرانكل» في كتابه الإنسان يبحث عن معنى: «رد الفعل غير السوي، إزاء موقف غير سوي، هو استجابة سوية»، فاعتلال إدارة الخوف تؤدّي إلى العنف - وهو في حدّ ذاته أكثر خطورة من الفيروس ذاته- الذي يجرّد الأفراد من ضمائرهم الأخلاقية، بل يصبح بمثابة الصورة الباهتة للإرهاب،

ما يبدّد المسافة الآمنة بين طبيعة البشر الأخلاقية وطبيعتهم الوحشية الباردة في لحظات.

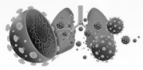

وتخلص الكاتبة إلى القول بأنّ من المهم كسر حلقة الخوف المحيطة، من خلال الممارسات والانشغالات اليومية مع أفراد الأسرة كممارسة القراءة أو اللعب، أو حتى تبادل الأحاديث، وتطويع النفس على الشعور المشروع بالخوف من دون ارتياب مبالغ، والبحث عن بدائل أخرى، قد تكون المأوى الآمن الذي يمكن أن نلجأ إليه بعيدًا عن الانغماس الكلي داخل السوشيال ميديا، وتحقيق مشاعر الطمأنينة والأمان. حقيقةً ليس من الإنصاف الادّعاء الكامل بأنّ البحث عن البدائل هو الحل، وليس من الأمانة الظهور بمظهر الواعظ، وإملاء ممارسات بعينها على أنها الخلاص من الخوف ذي الوجهين، فما أسهل الكلام وما أصعب الفعل! لكن الثابت أنّ شعور الخوف السّائل موجود، حتى لو أحاطت البشرية نفسها بأسلاك شائكة، فقط محاولة لتحقيق التوازن بين الخوف والأمان.

فيروس كورونا والعودة إلى تصوّراتنا البدائية[1]

لغتنا مسكونة بالميثولوجيا مهما حاولنا أن نصير تقدّميين وحداثيين!

تقول كاتبة المقالة إيمان النمر[2] بأنّ الأوقات العصيبة تباغتنا، لتصدمنا بعجزنا عن الإمساك بسبب منطقي يفسّرها، وتحولُ بيننا وبين «العمل كالمعتاد»، حيث نُفاجأ بأنماط تفكير وسلوكيات تظهر على السطح معلنة عن نفسها، وقد كنّا نعتقد أنّنا تجاوزناها. وتقتبس عن الفيلسوف النمساوي فتجنشتاين[3] قوله : «بأن لغتنا مسكونة بالميثولوجيا مهما حاولنا أن نصير تقدّميين وحداثيين».

تثار، على أثر تفشّي فيروس كورونا كوفيد19- وإعلانه وباءً عالميّاً، أسئلة شائكة من ضمنها ما يتعلّق بمفهوم الحضارة نفسه، وهو ما دفع بالكاتبة إلى السؤال مجدّداً: هل عقلنا مسكون بالميثولوجيا؟ هل لا نزال على مسافة قريبة من طبيعتنا البدائية، ولم يُنزع السحرُ عن عالمنا بعد؟

لا شك، كما ترى النمر، أن عالمنا الذي نعيشه ونختبره اليوم أصبح أكثر قابلية للتفسير، وتثبت أنظمتنا السياسية والاقتصادية أنّها أكثر كفاءة وقدرة على مجابهة خطر الموت، ومجابهة كل ما يمكنه تعطيل الحياة عن المسير والتواصل

(1) TRT عربي. 2020/4/6

(2) إيمان النمر: كاتبة وباحثة مصرية

(3) لودفيغ فتغانشتاين، يعدُّ من أهما فلاسفة القرن العشرين، ولد في فيينا بالنمسا. حظي بالتقدير بفضل كتابيه «رسالة منطقية فلسفية» وتحقيقات فلسفية. عمل في المقام الأول في أسس المنطق، والفلسفة والرياضيات، وفلسفة الذهن، وفلسفة اللغة (ويكيبيدا).

مقارنة بماضينا السحيق. أصبحنا نمتلك آليات عقلانية وخطابات لا تقتصر على المواجهة فحسب، بل أيضاً استثمار الأزمة والكارثة بما يخدم مصالحها.

وهنا تجد الكاتبة أن الدولة تفعِّلُ سلطاتها الوظيفية كاملة، بوصفها كياناً سياسياً يملك شرعية النفاذ والعنف، لدواعي التأمين والحماية وحق الحياة لمواطنيها، فتُموِّلُ الأبحاثَ العلمية، وتُغلِقُ الحدودَ، وتُعلن حالة الطوارئ، وتؤمّم الفضاء العام ومؤسّساته، وغيرها من الإجراءات مما تراه ملائماً بحكم الضرورة.

ولكن أمام بعض الجوائح الكبرى، قد تجد الدولة نفسها عاجزة عن توفير شروط الحماية والوقاية لمواطنيها. وهنا تحيلنا لغة العجز هذا إلى شرط وجودنا الأولي، أي جسدنا بكل بساطة، وصراعه من أجل البقاء، وتجعلنا لا نشعر بالهزيمة، ولا نفقد الثقة بكفاءة وصدق أنظمتنا السياسية فحسب، إنما تضع منجزنا الحداثي على المحك، وتحوّله إلى مادةٍ موضع شكٍّ يكاد يعيدنا إلى حالتنا «الطبيعية»، فلا نعود نسأل عن حرياتنا المكتسبة، بل عن أجسادنا التي تواجه عالماً لامرئياً من جسيمات فيروسية دقيقة، يضطرها إلى استعادة خبرة الأسلاف والاستنجاد بالتقاليد المندثرة في طي الزمن ورواسب اللاوعي، ما دمنا رغم تقدّمنا عاجزين، فما بالنا ببلدان وشعوب تعيش في شروط متدنية توصف باصطلاح جدلي «المتخلفة»؟

بكثير من الدّهشة وربما الاستنكار تابع العالم تصرّفات البعض ممّن أحيا أشكالاً متعدّدة من الطقوس والرؤى الدينية التي يغلب عليها الطابع الأسطوري، الذي يفسّر العالم ويصوّره بوصفه ساحة صراع بين البشر وكائنات لا مرئية أو قوى عليا غاضبة تتحكّم بمصائرهم. حيث لجأ البعض إلى إقامة طقوسِ العبادة الجماعية، التي تذكرنا بمواكب التكفير التي مارستها أوروبا العصور الوسطى، مخالفين أبسط مبادئ الصحة العامة وتحذيرات المسافة الاجتماعية. وآخرون

استعانوا بشفاعة الأولياء لتهدئة غضب الله بوصفهم وسطاء بين العوام والسماء، ومنهم من لجأ إلى قوى الجنّ وعالم السحر، وغيرهم رأوا الفيروسَ رسالةً إلهية للخلاص من الذنب، أو على الضد لعنة ضد الآخر بوصفه كافراً أو فاسقاً!

ذاكرة المرض والخطيئة تلك قد تفسّر جزءاً من علة هروب بعض المرضى ورفضهم المثول للعلاج الذي يستدعي الإعلان عن الهوية، وفي أحيان أخرى إخفاء الأهل والأقرباء حقيقة إصابة ذويهم بالوباء، لأنهم على الرغم من إدراكهم لطبيعة المرض ومحدّداته العلمية، فإنّ ذاكرتهم لا تزال تحتفظ ببعده الاجتماعي الديني المندثر، ومن ثمّ استعادة الشعور بالوصم والعار والعزل باعتباره وسيلة عقاب عتيقة.

تصبح ضديّة المقدّس والمدنّس وفق هذا المنطق -إذا كان ثمة اعتراف بمنطق هنا- هي التي تتحكّم بمصائرنا، فالموت بوصفه غاية كل وجود وعالم غيبي يستحيل إدراكه، إذاً لا بدّ من نهاية يأذن بها الله كلي القدرة ليأتي الزمن المقدّس الذي بلا خطيئة. وفي عالمنا يمكن أن تتّخذ الخطيئة أشكالاً أخرى من النسخة الدينية القديمة، إذ بإلحاح ينبئ العديد، ومن بينهم حتى من ينكرون الدين بوجهه الغيبي، أننا على وشك النهاية بخطيئتنا في حق الأرض، واستنزاف مواردها. فلا عجب أن تصبح إنسانيتنا وصمة عار وغرور على عكس ما نتخيّل من أنها إنجاز.

قديماً، نظر أسلافنا البدائيون بمفهومنا الحاضر على تعدّد جذورهم، شرقاً وغرباً، ضد الآخر كونه مختلفاً ديناً وعرقًا ونوعًا، باعتباره بربرياً، حد تساؤلهم عن طبيعته، هل يمكن عدّه بشرياً؟ واليوم، وبصرف النظر عن وجاهة الحجة التي يمكن طرحها، يتوجّه البعض إلى الصيني مثلاً، ليعيد إنتاج نفس السؤال بوصفه ممثّلاً عن فيروس لا مرئي استحضر وجوده من طعامٍ محرم أو مَنْهيّ عنه علمياً.

من دواعي السخرية، أن تلك النزعة العنصرية التي تتغذّى على الأزمة والكارثة، وتحوِّل المرض إلى موقف عدائي ضد الآخر بوصفِه مصدر الخطر الذي يجب تصويب سهام الانتقام نحوه وتحميله وزر الخطيئة، يتبنّاها بعض الخطاب السياسي محاولاً فرضه رؤية شعبوية، ومستثمراً حالة التحفّز الانفعالية التي ينتجها الشعور بالخوف والقلق العام، فيربط الرئيس الأمريكي دونالد ترمب بين الصين وانتشار الوباء، مُعيدًا إنتاج الحالة الطبيعية من حرب الكلِّ ضد الكل أو مملكة العداوة بين البشر حسب فلسفة توماس هوبز.

وإذا كانت مملكة العداوة تلك، تفسّر سلوك البشر في حالة الطبيعة البدائية بوصفهم جزءاً من العالم الحيواني، تعتمد على قاعدة «رهاب الملامسة»، حيث يغدو كل جسد ملامس للآخر عدوّاً محتملاً، ففي ظل ما نعيشه من خطر الوباء الفيروسي، تتدفق التحذيرات والتعليمات تنهانا عن لمس الآخر، بأنّ نجاتنا مقيّدة بعدد الأمتار التي يمكننا أن نبتعدها عنه، وحسبان المسافة والعزلة يعيد إلينا السؤال عن حدود الاجتماعي والفردي، وأي طبيعة يمكن الحديث عنها؟ هل نحن فردانيون نخشى الآخر باعتباره عدواً محتملاً، أم اجتماعيون بالفطرة كما أخبرتنا مدارس علم الاجتماع؟

تجيب الكاتبة على تلك الأسئلة بالقول: من واقع الملاحظة يمكن القول بأنّ الكارثة والخطر يعيدان شعور الاحتياج إلى التضامن والإحساس بروابط الجماعة وفاعلية التواصل، فضلاً عن شعور المرء على نحو غامض بسعادة خَفيّة لا تُعلَن عادة، إذ خلافاً لما يعانيه من خوف وارتياب، يختبر تجربةَ العيش في لحظةٍ شبه اتحادية عبر مواجهة خطر واحد يشمل الجميع. فلا عجب أن البعض يضفي الطابع الأسطوري المبالغ فيه على الإحصاءات والمعلومات المتداولة بشأن الوباء لأجل أن يشبع إحساسه الخفي بنشوة الخطر كأنه عيد احتفالي، هذا قبل أن

يصيبه الضجر من وطأة استمرار الأزمة.

ما يثبته الواقع، أنّ الكوارث إذا كان بإمكانها إنتاج سبل للخلاص، هي كذلك تنتج العداء، وكما يسطع الكامن من عقلانية البشر، فإنها يمكنها أيضاً أن تحيي الخرافات ونزعة التدمير.

ربما نعيش في حالة من استمرارية الطبيعة البدائية حقاً داخل مستوى الشعور واللاوعي حين تستبد بنا انفعالاتنا، سيما حين نعجز عن إيجاد حل يشملنا جميعاً، لكن ما لا يخطئه فكر سليم، أننا كما لدينا نزعة فردانية للبقاء، فلدينا أيضاً نزعة بقاء الجماعة، لذا نجتهد في البحث عن سبل التواصل حد المخاطرة بمخالفة التحذيرات المعلنة الضامنة لأماننا، بيد أنّ الخطر يكمن في عودة التضامن عصبوياً، أي أن تنغلق كل جماعة على ذاتها، وبدلاً من إدانة الأنانية باعتبارها فعلاً حيوانياً بدائياً نرحّب بها، فيصير لدينا من جديد حرب الكل ضدّ الكل.

تأويليّة الوباء والتوظيف الأيديولوجي[1]

يرى محمد شقير، بأنّ ما يحصلُ، اليوم، في العالمِ من أزمات، كشف عنها، وزاد فيها، انتشار الوباء الحالي Covid-19، يشير إلى فشل منظومة العولمة، وقيمها الرأسمالية المتطرّفة والنيوليبراليّة، في أن تكون في خدمة الإنسان، وأمنه، ورفاهه. إلا أن هذا الفشل، بحسب شقير، لا ينبغي أن يكون سبباً لإنعاش التوظيف الأيديولوجي، والصراع الفكري الذي كان قائمًا بين الماركسية والرأسمالية، لأنّ ما يحصل اليوم لا يصحّ عدّه دليلاً على كونه مدخلاً إلى الاشتراكية الماركسية، وهي مقاربة ينبغي الالتفات إليها، لأنّه يبدو أنّ هناك من يعتقد أن فشل تلك الرأسمالية، ليس إلّا تعبيراً عن انبعاث مستجد للماركسية وقيمها؛ وفي هذا أكثر من ملاحظة:

أولاً: ينطوي هذا الاعتقاد، أي انبعاث الماركسية كنتيجة لفشل الرأسمالية، على رؤية ضيّقة للخيارات الفكرية للتجربة البشرية، تحصرها في اثنتين (رأسمالية، ماركسية).

الشيخ د. محمد شقير / أستاذ الفلسفة في الجامعة اللبنانية

(يقدم الكاتب رؤية نقدية لمن يعتقد أن فشل منظومة العولمة، وقيمها الرأسمالية المتطرّفة والنيوليبراليّة، مدخل للاشتراكية الماركسية، في مواجهة هذا الوباء. وهذا خطأ مميت، برأي الكاتب، إذ لا ينبغي نفخ الروح من جديد في التصلّب الأيديولوجي الذي ثبت فشله، وأدّى إلى الكوارث والخيبات. ويؤكّد في مقارنة خاطفة مع بعض الأحزاب (المقاومة)، ذات المرجعيّة الدينيّة، أنها أجدى دوراً في مشروع التحرّر والمقاومة المحلّي (لبنان) والإقليمي، وهي أبلغ أثراً في قيادة مشروع التحوّل إلى نظام أكثر عدالة، وأشدّ انحيازاً إلى الفقراء والفئات المستضعفة والمظلومة)

(1) صحيفة الأخبار اللبنانية، 2020/3/23.

ثانياً: يختزن، هذا الاعتقاد، عقمَ العقل البشري عن اجتراح خيارات أخرى، قد تكون أكثر إبداعًا، وقدرةً على محاكاة مصالح البشرية، وخير الإنسان.

ثالثاً: يمارس نوعًا من الإسقاط الأيديولوجي على الواقع والتاريخ؛ إسقاط ثبت فشله في أكثر من موطن واختبار.

يجادل الكاتب بأنه لا بدّ من القول بأن نجاح نوع من أنواع الاشتراكيّة، في أن يكون أقرب إلى رفاه الإنسان، وأمنه الشامل؛ ليس دليلاً على كونه مدخلاً إلى الشّيوعية، أو تعبيراً عن مواءمة ما يحصل للنظرية الماركسية للتاريخ وحركته، إذ لا بدّ من التفريق بين الاشتراكية كمدخل إلى الشيوعية، باعتبار كونها مفردة من مفردات النظرية الماركسيّة ورؤيتها للتاريخ، وبين الاشتراكية في إطارِها الاجتماعي والاقتصادي (الديمقراطي) البحت؛ أي بين الاشتراكية الماركسية، والاشتراكية الاجتماعية. ونجاحُ الثانية كجزءٍ من النظام الاجتماعي-الاقتصادي لأيٍّ من الدّول، لا يعني أبداً نجاحَ الأولى، ومحاولةِ الخلط بين الأولى والثانية، لا يعدو أن يكون ممارسةً تهدفُ إلى أكثرَ من توظيف أيديولوجي، لا يسلم من النقد.

يضيف شقير بأنّ التفريق بين الاشتراكية، كمعطى أيديولوجي ماركسي، وبين الاشتراكية كرؤية اجتماعية؛ هو أمر جوهري، إذ إنّ ما يميّز هذه الاشتراكية: أنّها ليست، من نحوٍ أول، مرحلة تاريخية، كمقدّمة نحو الشيوعية؛ وليست، من نحو ثانٍ، اشتراكيّةً عامّة لجميع القطاعات ذات الصلة؛ كما أنها ليست، من جهة ثالثة، اشتراكيّةً نقيّة، بل هي مزيج مع محتوى آخر (قد يكون رأسماليّاً)؛ وهي من جهة رابعةٍ أقرب إلى أن تستندَ إلى قيم العدالة بمحتواها الأخلاقي، من مضمونها الأيديولوجي؛ وهي، من نحو خامس، يمكن أن تتواجدَ لدى أي من المدارس الفكرية أو الأنظمة أو السياسات، بغضّ النظر عن التسميات والخلفيّات، إذ إنّ

مضمونها القيمي الأخلاقي يسمح لها أن تكون عابرة لجميع الأطر والحواجز.

لذلك، يمكن للقارئ أن يلاحظ وجود أحزاب اشتراكية، لكنّها ليست بالضرورة ماركسية شيوعية، كما يمكن ملاحظة سياسات لدى العديد من الدول والحكومات، يمكن أن توصف - بناءً على تلك المقاربة - بكونها اشتراكية - ولو بمعنى حضور قيم العدالة اجتماعيًا واقتصاديًا - لكنّها ليست على الإطلاق ماركسية أو شيوعية. بل يمكن القول إنّ هذا المضمون الذي قد يوصف بالاشتراكي - والذي يقارب العدالة بمفهومها الأخلاقي -ليس حكراً على الاشتراكية، وقد كان موجوداً وممارساً -وما يزال - بشكل أو بآخر لدى العديد من الاتّجاهات والمدارس الفكرية، أو الأنظمة التي تتبنّى قيَماً وسياسات أكثر عدالة اجتماعياً واقتصادياً.

بناءً عليه، يرى شقير، أن التمييز سوف يكون أمراً ضرورياً بين الاشتراكية الماركسية من جهة، والاشتراكية الاجتماعية من جهة أخرى، فما هو قائم في العديد من الدول وأمكن له تحقيق أكثر من إضافة ونجاح رفاهي للإنسان، هو تلك الاشتراكية الاجتماعية - أي العدالة الأخلاقية- أو ربما توصف بالفطريّة - والتي يمكن أن تتآلف مع أكثر من بعدٍ رأسمالي أو إسلاميّ في الفكر، أو في النظام القائم في أكثر من دولة، أمّا تلك الماركسية الشّيوعية، فهي التي لم يتحقّق منها شيء إلى الآن، بل هي فشلت، وأثبتّتْ التجارب التاريخية عجزها عن تقديم إثبات واقعي واحد على صحّتها وإمكانيّتها العملية.

وقد لا يكون من المبالغة القول بأنّ مجمل الأحزاب الشيوعية في العالم لم يبقَ لها من الشيوعية إلّا الاسم، في حين أنّها نَحَتْ إلى أن تكون اشتراكية بالمعنى الاجتماعي والاقتصادي. من هنا، نستطيع أن نجد أنّ مجمل تلك الدول ذات النظام الرأسمالي، قد تبنّت مستوى أو آخر من تلك الاشتراكية - بما فيها تلك التي تمادت في خياراتها الرأسمالية - وهي لا تجد تهافتاً بين طبيعة ذلك النظام، وبين

أن تكون لديه سياسات قد توصف بالاشتراكية، أو هي في الواقع مستمدّة من قيم العدالة الاجتماعية والاقتصادية، بل إنّ بعض الدول التي تبنّت، منذ نشأتها، الفكر الماركسي، وسعت إلى تطبيقه في السياسة والاقتصاد والمجتمع؛ لم تجد ما يحول دون اعتمادها خيارات رأسمالية، والأنموذج الصيني خير شاهد على ما نقول، حيث اندمجت رأسمالية الدولة مع اشتراكيّتها، وهو ما جرى ويجري تحت عنوان تطوير الأنموذج، وتكيّفه مع الواقع. لكن ما كان يجري تسويقه على أنّه إبقاء على الثوابت الماركسيّة، لم يكن في الواقع إلّا نوعاً من المغادرة لتلك الثوابت، ولو في بعضٍ من مفرداتها، وإن عُمِل على تظهير تلك المغادرة بطريقة مواربة، حيث قد يكون الحرص على إظهار النقاء الأيديولوجي أحد أسبابها.

إنّ أدنى مقارنة بين النموذج السوفياتي والنموذج الصيني، يظهر أنّ أحد أسباب فشل النموذج الأوّل هو الانغلاق الأيديولوجي، الذي كان يؤدّي إلى أكثر من إشكاليّة في النظر إلى الواقع، وفي محاولة إنتاجه؛ بخلاف النموذج الثاني، الذي أفضى تجاوز بعضٍ من ثوابته الأيديولوجية إلى توفير أكثر من قدرة على التكيّف، والتطوير في أكثر من مجال. لعلّ ميزة النموذج الصيني - في نسخته الثانية - هي أنّه نموذج يحوي قليلاً من الأيديولوجيا، لصالح مساحة أكبر من الانفتاح الاقتصادي، والتفاعل الحضاري في أكثر من ميدان، في مقابل النموذج السوفياتي، الذي انطوى على غلبة البعد الأيديولوجي على أيّة مرونة، أو قدرة على التفاعل، والتكيّف، والتطوير. وهو ما ساهم في إيصال هذا النموذج إلى ما وصل إليه، في حين استطاع النموذج الصيني أن يتجنّب ذلك المآل، بفعل تلك المقاربة الإصلاحية التي حصلت قبل حوالي نصف قرن من الزمن، والتي شكّلت نوعاً من الانعطافة في مسار هذا النموذج ومآلاته.

قد ينطوي مجمل ما تقدّم، باعتقاد الكاتب، على قضية مفادها أنّه ليس من

الصحيح أن يشكّل مجمل ما يحصل من فشل عولمي رأسمالي دافعاً إلى العودة إلى الوراء، عودة مشفوعةً بنوع من الحنين الماركسي، وتحديداً في سياق الاعتقاد أنّ فشل الرأسماليات المتوحّشة في مواجهة هذا الوباء، ينبغي أن يقود إلى محاولة استنباش الماركسية من تحت ركام التاريخ. هذا الأمر ليس صحيحاً بالمعنى المعرفي والمنطقي، ولا ينبغي أن يفضي إلى نفخ الروح من جديد في التصلّب الأيديولوجي الذي ثبت فشله، وأدّى إلى العديد من الكوارث والخيبات في التجربة الماركسية. إنّ العودة إلى تعويم الأيديولوجيا، سوف تؤدّي إلى العثرات والسقطات نفسها التي أفضى إليها التغوّل الأيديولوجي في تجارب تاريخيّة سابقة، ليست ببعيدة، دولاً وأحزاباً وغيرها.

إنّ ما مضى بيانه، قد يشتمل على دعوة إلى الانحياز من الأيديولوجيا إلى مزيد من الواقعية، والتحرّر الفكري، والانفتاح، والقدرة على التكيّف، والتطوير، وتجاوز الانغلاق، وتفادي التصلّب، والسعي إلى إنتاج نموذج (اشتراكي) يرتكز على قيم العدالة الأخلاقية، أي الانتقال من الأيديولوجيا وإسقاطاتها وسقطاتها إلى العدالة في قيمها وتجلّياتها، وأن يُعمل على إنتاج تلك «الاشتراكية الاجتماعية» التي تحاكي خصوصيّة المرحلة والمحيط، فليس من الضروري أن يُمارس تقليدٌ غير واعٍ للاشتراكيات المختلفة على اختلافها، واختلاف نماذجها، أو فعل إسقاط لتجارب أخرى، تختلف في ظروفها وخصوصيّاتها.

إنّ ما ينبغي البوح به، هو مكمن القوّة لدى الأحزاب الشيوعية اسماً -الاشتراكية واقعاً - عندما تستند، بشكل عقلاني - أخلاقي، وليس أيديولوجي، إلى العدالة في مشروعها وأهدافها - بمعزل عن الجدل والنقاش في تأويلات العدالة وتطبيقاتها - في حين أنّ مكمن الضعف لديها عندما تجنح إلى أيديولوجيّتها المستوردة، وتمارس اغترابها الأيديولوجي. وأي حزبٍ من الأحزاب الشيوعية،

يمكن له ببساطة أن يقتفي أثر عثراته الأيديولوجية في أيّة مقاربة تاريخية، لكن بشروطها، ومنها: زحزحة الثوابت، ومغادرة التنميط، وممارسة دور متقدّم من التحرّر الفكري. إنّه لمن المجدي أن تتمّ مقاربة ما يحصل بشكل أكثر علميّة وواقعيّة، بعيداً عن الحماس الأيديولوجي، حتّى لا يفضي إلى ممارسة نوع من الإسقاط الرؤيوي الماركسي، لأنّ ذلك سوف يؤدّي إلى إنتاج وعي زائف، وإلى الوقوع مجدّداً في الفخ الأيديولوجي وعثراته، بما في ذلك تعزيز الموقف العدائي من الدين والتيّار الديني، بمعزل عن أي تفريق بين اتّجاه (أو تيّار) ديني، عقلاني، حداثوي، تحرّري، مقاوم، قيمي (العدالة)، وبين غيره... مع أنّ نظرة خاطفة إلى بعض التجارب الدينية المعاصرة، تظهر أنّ بعض الأحزاب (المقاومة)، ذات المرجعيّة الدينيّة، هي أجدى دوراً في مشروع التحرّر والمقاومة المحلّي (لبنان) والإقليمي، وهي أبلغ أثراً في قيادة مشروع التحوّل إلى نظام أكثر عدالة، وأشدّ انحيازاً إلى الفقراء والفئات المستضعفة والمظلومة، هذا فضلاً عن أكثر من دور اجتماعي وتنموي وسياسي ذي صلة.

كذلك الأمر عندما نأتي إلى بعض الدول الإقليمية ذات المرجعيّة الدينيّة (الجمهورية الإسلامية في إيران)، فإنّنا نجد أنّ دورها في المشروع التحرّري والمقاوم (للاحتلال الإسرائيلي وغيره) في المنطقة، لا يقارن مع دول عظمى ذات مرجعيّة ماركسيّة، بادت أو ما زالت قائمة، فهي - أي الجمهورية الإسلامية - لم تبادر لكي تكون من أوّل المعترفين بالكيان الإسرائيلي، أو من الذين لديهم علاقات دبلوماسية كاملة معه، كما هو الحال مع تلك الدول.

الجزائر اليوم
فيلو-كورونا كوفيد 19

الوباء سيكون حليف الحياة باستمرار، ولقاحاتنا سواء الطبية أو المعنوية هي دائما مؤقّتة: لأن الفايروس شرط ديمومة الحياة»[1]

«فيلو-كورونا كوفيد 19»، هو عنوان لكتاب سيصدر قريبًا للمفكر المغربي إدريس هاني، فيه نبرة تفكيرية فلسفية تحكي الإنسان في مواجهة داء العصر الجديد، كوفيد 19 كورونا.

جاء في مقدمته، في انتظار اللقاح الطّبي، نقوم بالبحث عن اللّقاح الذي هو أبعد مدى ويرسم المصير التاريخي والحضاري للمجتمع البشري، أي اللّقاح المعنوي. والحقيقة التي يحاول الكاتب تسليط الضوء عليها من حين لآخر هي إشـارات تنطلق من التشخيص العلمي

يقدّم المقال فكرة مختصرة عن الكتاب المزمع صدوره، وهو يتحدّث عن سؤال الفلسفة والطب في ظل جائحة كونية، وكلاهما مسؤولان عن استحداث رؤية حكيمة تربط بين جسد الإنسان وعقله التنويري، ويؤكّد أن الفيلسوف الكادح الذي يعمل ضمن أجندة مقرّرة هو ليس فيلسوفًا بل هو عامل يشتغل ضمن برنامج محدّد وينجز مهمّة تحت طائلة القواعد. وهذا سيجعل المهمّة صعبة، فلا طبّ من هذا القبيل سيكون في صالح حكمة العالم ولا الفلسفة بهذا المعنى تستطيع أن تستعيد لحظتها في تدبير الصّحة العقلية، فهل يا ترى ستكون كورونا فرصة لعودة الطّب إلى الحكمة الخالدة وهل ما يجري على صعيد الأبحاث الكبرى هو بالفعل استجابة دائمة لهذا القسم لفيلسوف يجهله الأطباء والمرضى معاً حيث إدارة الصحة والدواء بات جزءًا من المصالح الإمبريالية التي تعمل كلها وفق ميثاق المقاولة وقواعد الإنتاج الرأسمالي؟).

(1) إدريس هاني مفكّر مغربي، تنصب إنشغالاته المعرفية على القضايا الكبرى ذات العلاقة بالفكر الإسلامي، منشغل بتحليل جيو- ستراتيجيا السياسة ومنطق المقاومة والممانعة وحركات الإسلام السياسي في المغرب والعالم العربي الإرهاب والسلفية.

لبنية الفيروس ووظيفته ومؤهّلاته أيضًا في الاستجابة لتحدّي البقاء.

يرى الكاتب أنّ الحديث عن لقاح نهائي هو واحدة من الخرائف الطّبية نفسها، ورغم ذلك سيبني على هذه القضيّة تداوليّا، ذلك لأنّنا لا نفعل سوى أن نكبح جماح الفيروس ونفرض عليه الحجر الصحي المعكوس. ويسأل، ما الوصفة التي يجب أن نقدّمها في سياق تدبير الجائحة وتحرير سيكولوجياً الإنسان المحجور من خطر الاكتئاب واليأس من المصير؟

يوضح الكاتب بأنّ ما يسمّى لقاحًا، هو فوزٌ في معركة ضدّ فيروس السّاعة، لكنها ستظل حربًا طويلة وجب ألا يتمُّ الحديثُ فيها إلاّ على انتصارات زمنية، وكذلك الأمر بالنسبة إلى اللقاح المعنوي فهو يقدّم وصفة آنية تفيد في تغيير النموذج واعتماد البدائل الأكثر مناعة للآثار التدميرية للفيروس؛ لأنّ ما نقوم به هنا هو تمرين واختبار لمفاهيم سبق وقُدمت احتواء لأزمة الحاضر واستشرافاً للمآل والمتوقّع واختباراً لفرضيات سابقة تستهدف النموذج الحضاراتي.

يضيف هاني بأننا مطالبون اليوم أن نرقى في أساليب تعاطينا مع التحدّي الكوني الذي يستهدف الحياة الجماعية؛ لأن النضال اليوم حتمي يستند إلى المحفّز الطبيعي في عالم يكشف عن ملامحه الداروينية، نضال يستند إلى ميل جبلّي يتعلّق بغريزة حبّ البقاء، لكن، يسأل هاني، كيف وجب أن نبقى بشروط إنسانية فائقة وليس بمجرّد الرغبة الغريزية في البقاء؟

يجيب على السؤال بالقول، إنّنا حتى حينما نتحدّث عن البدائل الممكنة، فإن الجميع يخوض صراعًا حيويًا في مسار تاريخي معرّض لثأر الطبيعة باستمرار، فالوباء سيكون حليف الحياة باستمرار، ولقاحاتنا سواء الطبية أو المعنوية هي دائماً مؤقّتة؛ لأنّ الفيروس ليس طارئًا على الطبيعة وليس جزءًا من الفوضى

النقيض للنظام البيئي، بل هو شرط ديمومة الحياة، فمن دون فيروس كما قلنا ويؤكّد على ذلك ستفقد الخلية ديناميتها الحيوية، بل ما يجب أن يدركه حتى أطباؤنا الغارقون في توصيف لوظيفة ومسار ضيق للفايروس خالي من أي رؤية فلسفية، أنّه لولا ما يتسبّب فيه الفيروس من يقظة وجهوزية خلوية لفقدت هذه الأخيرة أحد المحفّزات الأساسية للنشاط الحيوي، ولكُنّا عبارة عن أجسام محنّطة وخلايا نائمة، أي الموت المحقّق. إنّ ديناميكتيك الحياة يبدأ من هناك، أي من هذا الصراع الأبدي بين الخلية والفيروس الذي وحده يمنحنا إمكانية البقاء، ويمنح الخلية، سواء خلايانا أو خلايا النبات المؤثث لوجودنا وغذاءنا، فرصة للتكامل في جمالية حرب مستدامة يساهم فيها كل من الخلية والفيروس.

يعود الكاتب إلى سؤال الفلسفة في سياق جائحة كونية، ما الذي يمكن أن يقوم به الطّب إذا كان سيواصل مروقه عن الحكمة التي منها انطلق؟ سنكون أمام تشظّي الصّحة البشرية، أمام استنفار كبير لإنقاذ الجسد، لكن الوباء ليس استهدافاً للجسد فحسب، وإن كان الجسد هو المعني بالضربة الأولى.

فإذا كان الطّب هرب من الحكمة كما هرب الفيروس من الخلية ثم عاد إليها في وضعية انتقام وتدمير، فإننا نخشى أن يحدث الأمر نفسه بين الطّب والفلسفة، حينئذٍ سنكون إزاء نموذج الطبيب «الزّوفري» أي ذلك الفيلسوف الكادح الذي يعمل ضمن أجندة وأصول مقرّرة، وهو ليس فيلسوفًا بل هو عامل يشتغل ضمن برنامج محدّد وينجز مهمّة تحت طائلة القواعد. وهذا سيجعل المهمّة صعبة، فلا طبّ من هذا القبيل سيكون في صالح حكمة العالم ولا الفلسفة بهذا المعني تستطيع أن تستعيد لحظتها في تدبير الصّحة العقلية، فهل يا ترى ستكون كورونا فرصة لعودة الطّب إلى الحكمة الخالدة ونحرّره من هذا الاختزال الذي

جعل الطّب مهنة تحت طائلة قسم أبقراط؟ وهل إن ما يجري على صعيد الأبحاث الكبرى هو بالفعل استجابة دائمة لهذا القسم لفيلسوف يجهله الأطباء والمرضى معاً حيث إدارة الصحة والدواء بات جزءًا من المصالح الإمبريالية التي تعمل كلها وفق ميثاق المقاولة وقواعد الإنتاج الرأسمالي؟

الحقيقة التي يحاول الكاتب تسليط الضوء عليها بين حين وآخر هنا هي إشارات تنطلق من التشخيص العلمي لبنية الفيروس ووظيفته ومؤهلاته أيضاً في استجابته الطبيعية لتحدّي سؤال البقاء، إذ لا يدخل الكاتب موضوعه متردّداً كمن يسعون للهروب من مسؤولية نتائج ما تكشف عنه مختبرات إنتاج المفاهيم أو من ينظرون إلى الفيروس كعابر سبيل مزعج لعالمهم الذي يخلعون سمة الخلود على ضحالته، بل أدخله واثقاً مدركاً لقانون اللعبة الطبيعية التي فرض قواعدها فيروس ما فتئ يتبجّح بمهاراته المكتسبة. أدخله بحدس قديم حيث سبق.

يستشرف الكاتب حتمية انقلاب الذّهن البشري بفضل ارتجاج كوني آت لا محالة نتيجة الخطوات التي يسلك عليها النظام العالمي، مستمسكاً بقوّة الحدس الذي هو العنصر الأساسي في مقاربته، تمامًا كما هو العنصر الأساسي في الرياضيات، فكورونا برأيه فرصة لاختبار فرضياتنا، وطبيعي أن من لم يراكم من الحدس والتّأمّل للعالم ومساراته سينتظر وسيطول انتظاره مثل بومة «منيرفا» ليؤرّخ للأحداث بعد أن تبلى ويصبح التّأمل فيها مجلبة لخيبات الأمل. وما كان دور الفلسفة يوماً أن تؤرّخ للأحداث وتستمتع بالقرفصاء في انتظار المستقبل.

ولو اتبع العلم والفلسفة والخيال هذا النمط من الإنتظارية السّلبية لكنّا خلايا نائمة وكان التاريخ قطعة من الفراغ. الفيلسوف الحادس لمسارات الحدث المشتبك مع تفاصيله المنصت لأنينه المنشغل يوميّاً بمآزقه لا يخطو الهوينا

في درب وجب أن يسابق الحدس فيه مكر الفيروس، ففي اللّحظات الصعبة والحرجة لا مكان للفيلسوف «الزّوفري» الذي ينجز تطبيقات جامدة على شيء لم يعد له أثر.

إنّ الماضي والمستقبل يلتقيان بعمق في اللحظة القصوى لحدس الوجود زمن الجائحات، وكاتب هذه السّطور لا يسلّم بالأدوات المدرسية ولا حتى المدرسانية بل يمنح لفكرته الأثيرة «العبر-سكولائية» دورًا محوريًا في تحرير الذهن البشري من سطوة وثقل النماذج والباراديغمات التي ساهمت كحارس معبد أصنام الفلسفة التي طالما سخر منها نيتشه وهو ينحت الأسس التربوية الواعدة في مخرج إنسان غوته أو إنسان شوبنهاور في أفق انتظارات تدور كلها حول فعل «الإرادة». في الجائحات وجب كبّ جملة من الأشياء في مكبّ النفايات ومنها التقيد بالميمية (la mimique) -الإيمائية- والقوالب الجامدة والتقليد، فلا شيء أسرع من الحدس -وهو مركوز في طبيعتنا- كما لا يسرع من الفيروس في فتكه بخلايانا.

سيكون من المُغالطة أن يُنتظر منّا إيجاد اللّقاح لسبب بسيط هو أنّ ذلك ليس من صلاحيتنا ووظيفتنا، ذلك لأنّ اللقاح من شأنه أن ينهي معضلة الجسد الصّحية لكن معضلة الإنسان لن تنتهي بوجود هذا اللّقاح.

يتمنّى هاني من الخبراء أن يتحرّروا من الباراديغم والحسابات التي تفرضها مصالح الشركات المعنية بالاحتكار ومباشرة البحث العلمي خارج حدود منطق التنافسية وسياسات الاحتكار، إذ ذاك يمكنهم قلب الحقائق والتحرّر من معيقات البحث المختبري؛ لأنّ المشكلة التي تواجه العلوم كالفلسفة تماماً تكمن في هذا الجمود والتقيّد بقواعد النموذج، وضيف، ستدركون غداً أنّ اللقاح إن وجد

وحتماً سيوجد؛ لأنّ العقل البشري أذكى من مكر الفيروس شريطة أن لا يتقيّد حدّ الجمود بقواعد المنهج من دون إعادة اختبار الفرضية -هنا لا غرو من شيء من الآنارشية- ستدركون يومها أنّ مكتشف اللقاح وحده كان يملك الشجاعة العلمية لتجاوز الباراديغم والنزعة «الميمية»، ذلك هو العالم الذي يستحق لقب فيلسوف أيضًا.

في نقد مقولة تغيرات العالم الكبرى بعد «كورونا»[1]

ينطلق تيسير الرداوي من مقولة أنّ «العالم بعد كورونا هو غير العالم قبله» باتت تتردّد بقوّة، بحيث بتنا نسمع أنواعاً شتى من التوقّعات، فمن قائل إن الحرب العالمية قادمة، إلى آخر يقسّم العالم أنظمة اجتماعية منضبطة قادرة على دحر الوباء، كالصين وروسيا وكوريا وإيران، وأخرى تفشل في مواجهته لأنها تعيش في فوضى الرأسمالية، كالولايات المتحدة وإيطاليا وإسبانيا وإنكلترا، إلى قائل ثالث يرى الموضوع نفسه من جهة أخرى، فيتعصّب لأيام الاتحاد السوفياتي، ويتحدّث عن الانهيار القادم للرأسمالية. وينسب آخرون تحليلهم إلى النظرية الاقتصادية، فيرون الوباء دورة من الـدورات الاقتصادية التي تختفي ثم تعود. ويمكن أن نجد المنبهر بالنمو الذي حقّقته الصين خـلال السنوات الماضية، ونجحت بفضله في تجاوز الوباء، ولذلك ستقود العالم. وأخـيرًا يمكن أن نجد الأقل اندفاعًا في توقّع التبديل الكبير القادم، فيتوقّع

تيسير الرداوي (أستاذ جامعي ورئيس هيئة تخطيط الدولة في سورية سابقاً)
(يـؤكّـد الكاتب أنّ ليس كـل وبـاء يـؤدّي إلى تغيّرات سياسية واقتصادية كبرى، فالتغيّرات الكبرى لا تحدث إلا بفعل تغيّرات تقنية وبشرية كبرى، ولا توجد إمكانية لحدوث تغييرات جذرية بفعل كورونا، وإنما إمكانية لحدوث تغييرات طفيفة في أكثر من مجال» مؤكّداً أن شللاً اقتصاديًا سوف يضرب العالم، ويدوم سنوات. الجانب المضيء هو عودة الدول المتقدّمة والنامية إلى تأدية دورها الاجتماعي في توفير الصحة للجميع، على اعتبار أن صحة الفرد، قبل المال والأمن والحرب، هي إحدى المهام الأساسية للدولة. غير أنه يؤكّد أن العولمة حتمًا ستدخل في حجر صحي طويل).

(1) العربي الجديد، 2020/3/26

انهيار شركات الدول العظمى، ووصول بورصات العالم إلى الحضيض. وفي المقابل، يعتقد رأي آخر أن العالم بعد الوباء سيكون مثل العالم قبله، مع حتمية الإصلاح والتطوير والترقيع لمعالجة النواقص التي كشفها كورونا.

يتعزّز، كما يرى الكاتب، الاتجاه الذي يعتقد بالتغييرِ الكبير بما يصدر عن المؤسسات المالية الدولية، وعن منظمات الأمم المتحدة التي تصوّر الوباء أزمة خطيرة تعصف بالعالم، تتجاوز أزمة الكساد العالمي الكبير الذي ضرب العالم العام 1929. ويحذّر صندوق النقد الدولي، على لسان مديرته العامة، دول العالم، من أن أزمة فيروس كورونا ستحوّل النمو الاقتصادي العالمي إلى سلبي بشكل حاد خلال العام الجاري، وأن العالم يواجه أسوأ أزمة اقتصادية منذ ثلاثينيات القرن الماضي. ما يدحض هذا الكلام أن معدّلات النمو الاقتصادي في كل الدول تقريباً تراجعت كثيراً خلال السنوات العشر الماضية، وتراجعت بشكل كبير في السنوات الثلاث الأخيرة، بما في ذلك تراجع النمو في الصين، وأصبح معدل النمو في بعض الدول يقارب الصفر، قبل أن يأتي وباء كورونا، ويبدو عدم دقة تحليل المديرة العامة لصندوق النقد الدولي، حين تضيف أن الانتعاش سيعود جزئياً بعد العام 2021، ما يعني أنه مؤقّت، ويتناقض مع التهويل الذي ذهبت إليه.

ورأت منظمة العمل الدولية، الوباء، أشد أزمة يشهدها العالم منذ الحرب العالمية الثانية، لأنه سيؤدّي إلى إلغاء 6.7% من مدة العمل في جميع العالم. وهنا المبالغة أيضًا، لأن ما عدّته المنظمة أعلى نسبة بطالة في العالم هي أقل من معدّل البطالة الذي وصل إليه العالم بعد الحرب العالمية الثانية، فقد بلغ يومها أكثر من 10%. وهذا يعني أن نسبة البطالة التي تتوقّعها «العمل الدولية» أقل مما حدث سابقًا، ولا يمكن عدّه «كارثة»، خصوصاً وأن البطالة اليوم تختلف عنها أيام الحرب العالمية الثانية وأيام الكساد الكبير. في تلك الأيام، كان العمال

يبقون عاطلين عن العمل، حتى وإن وافقوا على العمل بأجور منخفضة جداً، وهذه ليست الحال اليوم.

كما أن تحذيرات الأمم المتحدة بزيادة عدد الفقراء بنصف مليار فقير، مما يعرقل تحقيق أهداف التنمية المستدامة في إنهاء الفقر بحلول العام 2030، هو تبرير لعجز الأمم المتحدة عن تحقيق ذلك الهدف. وتدّعي الصناديق المالية ومنظمات الأمم المتحدة أن الفقراء الجدد سيتركزون في شرق آسيا وجنوبها ومنطقتي المحيط الهادئ والصحراء الكبرى في أفريقيا. والحقيقة أنّ هذه المناطق، حتى هذه اللحظة، هي من أقل المناطق إصابة بالوباء. كل هذه التحذيرات، أو هذا التهريف والتخويف الذي يصدر عن مؤسسات مالية دولية أو منظمات الأمم المتحدة هو لتبرير فشلها في خدمة العالم، خصوصا العالم النامي.

قراءة التاريخ : الأوبئة لم تغيّر مصير العالم

يقول الكاتب، بالعودة إلى التاريخ، وإلى آخر وباءين كبيرين ضربا العالم، الطاعون الأسود في العام 1334، والإنفلونزا الإسبانية في 1918، نجدُ أن الأول بدأ، كما فعل كورونا الحالي، في الصين، ثم انتشر ليضرب بشكل أساسي أوروبا وجنوب البحر الأبيض المتوسط وشرقه وأجزاء من آسيا، وهو يعدّ أسوأ وباء في تاريخ البشرية الحديث، راح ضحيته بين 70 مليونًا و200 مليون شخصاً، ويقال إنه قضى على ثلث سكان أوروبا بين 1336 و1353.

تبدّل العالم بعد هذا الوباء، ولكن التبدّل لم يكن بسبب الوباء نفسه، كما يعتقد بعضهم، بل تبدّل العالم في نهاية القرن الرابع عشر بفعل تطوّر أساليب الإنتاج، وما جرّه من تبدّل في علاقات الإنتاج. تبدّل يومها النظام العبودي الذي قام عليه اقتصاد العصور الوسطى ومجتمعه، إلى نظام حرفي جديد، بفعل

استخراج الفحم وبداية الصناعات المعدنية والنسيجية، أي أن السبب الأساسي لهذا التبدّل هو الاكتشافات الجديدة في وسائل الإنتاج، وظهور المانيفكتورات (المعامل اليدوية البسيطة)، ما شكّل بداية طبقة رأسمالية، تستخدم أجراء مهرة يعملون في المنازل، ويراكمون المنتجات اليدوية، وبفعل الحروب الطاحنة التي بدأت قبل هذا الوباء واستمرت بعده.

وأما الوباء الثاني الذي سمي «الإنفلونزا الإسبانية»، وضرب العالم عام 1918 وانتهى عام 1920 تقريبًا، وتجاوز عدد ضحاياه مئة مليون إنسان، فإنه لم يبدّل في العالم شيئاً، ولم يُحدث ما أحدثه وباء الطاعون. التبدّل البسيط الذي حدث كان بفعل التغيّرات التي أحدثتها الحرب العالمية الأولى.

على كل حال، وعلى الرغم من أنه من المبكر معرفة كيف سينتهي وباء كورونا، فإن المقارنة بين كيفية تعاطي العالم مع وباء اليوم وتعاطيه مع الأوبئة السابقة تفيد بأن النتائج البشرية والمادية ستكون مختلفة. لم يأخذ العالم سابقاً موضوع الأوبئة بالجدّية التي يأخذها اليوم، حين يتعامل بآليات تختلف عن الآليات التي استخدمت مع «الطاعون الأسود» ومع «الإنفلونزا الإسبانية». ولذلك من المتوقّع أن تكون نتائجه البشرية والمادية أقل بكثير من نتائجهما.

يذكّر الكاتب بأنّ الدول، في الماضي، لم تأخذ الوباءين على محمل الجد إلا بعد أن بلغا الذروة وأوديا بحياة الملايين، بينما العالم اليوم يلوم ترامب لأنه تأخّر أسبوعين في أخذ الموضوع على محمل الجد، كما أنّ إجراءات الحجْر يومها لم تكن بفاعلية إجراءات اليوم، صارمة في التباعد الاجتماعي، ويتفاعل الناس بإيجابية معها، وتساعد وسائل التواصل الإلكتروني المختلفة في نجاحها، بالإضافة إلى التطوّرات التي وصل إليها العالم في مجال الطب والأدوية والأجهزة الطبية والأبحاث العلمية.

يريد الكاتب أن يوضّح من مقدمته التاريخية أن العالم بعد كورونا لن يكون مختلفًا بالقدر الذي كان عليه إبّان الطاعون الأسود والإنفلونزا الإسبانية، إلا إذا حدثت تطورات تمسّ بنية الاقتصاد والمجتمع والسياسة، أو حرب شاملة لا تبقي ولا تذر، وهذه احتمالات بعيدة حاليًا.

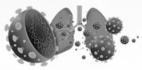

ويختم بالتأكيد على أنه لا توجد إمكانية لحدوث تغييرات جذرية بفعل كورونا، وإنما ثمّة إمكانية لحدوث تغييرات طفيفة في أكثر من مجال، لأنّ التغييرات الكبرى في المجال السياسي والاجتماعي والاقتصادي تتوقفُ على طول مدة الوباء وانتشاره وعدد ضحاياه، وتتوقّف على احتمال حدوث تغيرات بشرية وتكنولوجية خارقة.

عربي 21

أي عالم بعد كورونا؟[1]

منير شفيق 2020/3/17

يسأل منير شفيق انطلاقاً من الحرب العالمية التي شنّها كورونا (كوفيد- 19) على دول العالم: إذا كان ثمة شبه إجماع على أن عالم ما بعد كورونا لن يكون مثل عالم ما بعدها، فما هو التغيير الذي يمكن توقعه بالنسبة إلى الوضع الدولي؟

يقول شفيق: إنّ حكومات الدول الكبرى، ولا سيما أمريكا التي تعدّ نفسها الدولة الكبرى، وجدت نفسها عاجزة، حتى في بلادها عن مواجهة هـذا الوباء كما يجب، ومقصرة في عنايتها بالصحة العامة، ومفتقرة إلى المتطلبات اللازمة، وغير قـادرة على تأمينها بالسرعة المطلوبة، علماً أن

منير شفيق (مفكر عربي فلسطيني إسلامي وعضو الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين، اعتقل في العام 1957، اشتهر بنشاطه السياسي مع بعض المنظمات الفلسطينية، وألّف عدة كتب عن قضايا حول الثورة الفلسطينية، الوحدة العربية والفكر الإسلامي؛ من بين منشوراته الإسلام والمعركة للحضاره، النظام العالمي الجديد واختيار المواجهة).

(يؤكّد الكاتب على فكرة أن جائحة كورونا لا يمكن أن تسقط أنظمة وترفع أخرى، بدليل أوبئة عاشتها البشرية سابقًا ولم تؤدِ إلى ذلك، إنما يرى أن «كورونا» سيؤدّي إلى خسائر وأزمات بتفاوت، عدا البعد المتعلّق بالهيبة والـقـدرة. هذا يـعني أن الوضع العالمي بعد الحرب الكورونية العالمية سيتشكّل من الدول الكبرى نفسها، ويكون متعدّد القطبية، مع متغيّرات كمية هنا وهناك، سياسية واقتصادية ومعنوية، الأمر الذي سيحتاج إلى تغيير، ولكن دونه صراعات حامية الوطيس، ولن يتغير الوضع الدولي بعد كورونا إلّا عبر صراعات ونزاعات وأزمات، قد تجعلنا نترحم على أيام كورونا).

(1) عربي 21.

زيارة الوباء للعالم أمر متوقّع، ولا يجوز عدم تأمين الحدود الدنيا استعداداً له، كما تفعل في توقّع الحرب العسكرية، فتجعل موازنة وزارة الدفاع أضعاف ما تخصّصه للمجالات الأخرى. ولهذا لا عجب حين تكتب «الواشنطن بوست» الأمريكية: «كورونا عرّت ترامب». ويكتب معلّقون كثر أن «الصين تفوّقت على أمريكا في مواجهة كورونا». ولا عجب أن تنتشر «قرصنة» دولية في الحصول على الكمامات، وأجهزة التنفس الصناعي، وثياب الوقاية، ووسائط التعقيم. وأضف إلى ذاك تصدّع علاقات في ما بين دول حليفة، وتصاعد الاتهامات بين أمريكا والصين، بين أمريكا ومنظمة الصحة العالمية، بين أمريكا وكل من ألمانيا وفرنسا.

هذه المؤشّرات تعزّز برأي الكاتب السؤال عن التغيير الذي يمكن توقّعه بالنسبة إلى الوضع الدولي ما بعد الحرب العالمية الكورونية على العالم، وهو سؤال يمتد، كما يرى، إلى ثلاثة أسئلة أخرى مؤجّلة، هي: ما هو التغيير المتوقّع بالنسبة إلى وضع كل إقليم من أقاليم العالم، ولا سيما الإقليم العربي- الإيراني- التركي؟ وما هو التغيير المتوقّع في كل دولة على حدة؟ وما هو التغيير المتوقّع على مستوى الفرد والعلاقات الأسرية والاجتماعية وعياً وأيديولوجيةً ومسلكاً؟

وبالنسبة إلى السؤال الأول المتعلّق بالتغيير الذي ينتظر الوضع الدولي، وهو موضوعنا هنا، يحتاج في الإجابة عنه أن يبنى على لحاظ ثلاثة أسس تاريخية، تتعلّق بسنن التغيير في الوضع الدولي.

أولًا: الذين تبنّوا نظرية في التاريخ تقول: إن الأوبئة كانت وراء قيام وسقوط إمبراطوريات وحضارات، ويستدلون على أن الوباء الأنطوني (165-190م) أسقط الإمبراطورية الرومانية، أو طاعون جستنيان (541-543م) زعزع أركان الإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية. وهذه نظرية غير صحيحة، لأن الأولى سقطت

على يد القبائل الجرمانية العام 476م، أي بعد حوالي ثلاثة قرون، والفارسية بعد مئة عام تقريباً، وانتهت البيزنطية بعد 900 عام تقريباً. فالتغيير لم يكن فورياً وله أسباب أخرى أهم، ثم يجب أن يفرق بين دور الوباء في الإضعاف ودوره في التغيير.

وكذلك حين يُعزى للوباء الأنطوني أنه أدّى إلى إضعاف الإيمان بتعدّد الآلهة، ومهد للمسيحية (315-333م) فالتغيير حدث بعد 150 عامًا. أو عندما ينظر إلى أن الطاعون الأسود الذي ضرب أوروبا في القرن 14، أدى إلى إفلاس الملوك وانهيار الإقطاع والقنانة، وأدى إلى النهضة الأوروبية، فأنت تتحدّث هنا عن مئة عام تقريباً، فيما الذي أدى إلى فتح باب التغيير (النهضة) كان اكتشافات الأمريكيتين، وطريق رأس الرجاء الصالح أواخر القرن الخامس عشر، ثم احتاج التغيير إلى الثورة البرجوازية، والنهضة بعد مئة أو مئتي سنة أخرى. فعندما يقول هنري كيسنجر، «إن كورونا سيغيّر النظام العالمي للأبد»، يتقمّص تلك النظرية، ولا يلحظ الفارق بين الإضعاف أو هز الهيبة، وبين حدوث التغيير.

ثانياً: فعل الأوبئة في الإمبراطوريات والحضارات والدول مثل فعل كورونا الحالي بالإنسان الفرد (أكان فتيًا وشابًا أم كهلًا وشيخًا). فالإمبراطورية إذا كانت في مرحلة نهوضها تتجاوز الوباء بالرغم من الخسائر التي يسبّبها، وقد يؤخّرها بعض الوقت، لكنه لا يزرع أسباب سقوطها، أو يمنع نهوضها. مثلاً عندما ضرب طاعون عمواس في جيوش الفتح الإسلامي، في العام 640م، وقد ضرب في بلاد الشام حتى البصرة، تم تجاوزه، بالرغم من أنه قتل ما بين 25 و30 ألفًا من الجند وخيرة القادة. وكذلك القوى الناهضة في الغرب تجاوزت وباء 1918-1920 واستمرّت في النهوض. أما الإمبراطورية عندما تصبح في كهولتها أو شيخوختها،

ففعل الأوبئة فيها أشدّ تأثيرًا في إضعافها أو التمهيد لأفولها، من دون أن يكون السبب الرئيس للأفول. لهذا، ونحن في البحث عن تغيير الوضع الدولي بسبب كورونا الراهن، ينبغي لنا أن نفرّق في تأثيره بالنسبة إلى من هو في حال الصعود، ومن هو في حال التراجع في ما بين الدول الكبرى. كما نفرّق بين التغيير المباشر بعد كورونا في السنين العشر الأولى والثانية، ثم مدى تأثيره في التغيير في المدى البعيد، بالرغم مما سيتوفّر من أسباب أخرى، أشد تأثيرًا منه في حدوث التغيير الأكبر والنوعي.

ثالثاً: طبيعة الدول القائمة وأنظمتها مثل طبيعة الطبقات والمكوّنات الاجتماعية، ثابتة لا تتغيّر نوعيًا بسبب الأوبئة، أو بسبب كورونا هذا. فالوباء لا يقضي على الدولة والنظام القائم بالإسقاط، لأن الإسقاط يحتاج إلى من يحل مكانه. والوباء في النهاية هو الذي يُقضى عليه، أو يدخل في مرحلة كمون طويلة الأمد. لذلك؛ فإن طبيعة الدول الكبرى أو إسقاطها لا يكون بفعل وباء مثل كورونا، وإنما فعله سيقتصر على السمعة والهيبة إضعافًا وخسائر في حال الهرم والشيخوخة، أو يتم تجاوزه، ثم الاستمرار في النهوض (ربما بعد نكسة مؤقتة) فالرأسمالية في الغرب مرت بأوبئة، وبحالات من الضعف والقوة، من دون أن تتغير طبيعتها الربحية والنهابة والاحتكارية والهيمنية الذي يتغير مع تغيّر موازين القوى هو تغيير كمي في مدى الجشع والهيمنية. والسمات العامة للوضع الدولي وموازين قواه وطبيعة كل دولة كبرى فيه، ستبقى هي هي قبل كورونا وبعده. فكورونا لا يستطيع أن يطيح بأمريكا، ولا يستطيع أن «يعلو» بالصين لتصبح الدولة الكبرى رقم 1. وكذلك بالنسبة إلى روسيا وأوروبا واليابان والهند، وليس هو الذي يقرّر التغيير الذي يحدث بعده.

تأثير كورونا على أمريكا وأوروبا أنّه هزّ سمعة النظام الرأسمالي الغربي وهيبته، إذ بدا هشّاً أمام هجمة كورونا، فيما بدت الصين ونظامها أقدر وأفعل في مواجهة الوباء كوفيد- 19. وبدت أوروبا ضعيفة أمامه وتكاد «تتصدّع»، فيما حافظت روسيا على مكانتها وهيبتها. ولكن موازين القوى العسكرية فيما بين الدول الكبرى لم تتغيّر قبل كورونا وبعده مباشرة. وهذه هي الحاسمة في إحداث التغيير النوعي، أو الكمي، أما الهيبة والقدرة فلهما أهميتهما في حسابات موازين القوى العامة، ولكنهما لا تحدثان التغيير في الموقع الذي تحتله الدولة المعنية في ميزان القوى.

الفرق بين الحرب العسكرية بين الدول والحرب ضد كورونا؛ أن الأولى تنتهي بمنتصر يفرض سيطرته ومهزوم يخرج من المعادلة ولو مؤقتًا. أما الثانية عندما يُهزم كورونا، فالكل يخرج منتصرًا، أما في أثنائها، فالكل سيعاني خسائرًا وأزمات بتفاوت، عدا البعد المتعلّق بالهيبة والقدرة، حيث امتازت الصين حتى الآن بهما. هذا يعني أن الوضع العالمي بعد أن تضع الحرب الكورونية العالمية أوزارها، سيتشكّل من الدول الكبرى نفسها، ويكون متعدّد القطبية، مع متغيّرات كمية هنا وهناك، سياسية واقتصادية ومعنوية، الأمر الذي سيحتاج إلى تغيير، ولكن دونه خرط القتاد (صراعات حامية الوطيس).

إذ إن الوضع العالمي بعد كورونا سيبقى متعدّد الأقطاب، وبالأقطاب نفسها، وبفوضى، ولا نظام، ولكن بمتغيّرات كمية في معادلة موازين القوى العامة، والأهم من دون اعتراف بمنتصر أو مهزوم، ومن دون استجابة للتغيير الذي أصبح على الأجندة. فما من دولة تتنازل بخاطرها عن مربعها، نزولًا إلى مربع أدنى، فالنزول والصعود لا يتمان إلّا مدافعة وغلابًا.

وفي الماضي قبل «النووي» كانت الحرب حتمية، وهي القول الفصل. على أن انقشاع ظلمة كورونا سيكشف ما غطّته من أزمة اقتصادية عالمية تتّسم بالركود والتضخّم في آن واحد، وأزمة حرب أمريكية اقتصادية- سياسية على الصين، وأزمة أمريكية- روسية وصينية اتسمت بسباق تسلح محموم، وأزمة أمريكية- إيرانية تنذر بحرب إقليمية في أية لحظة، وأزمة أمريكية مع كل من ألمانيا وفرنسا وجنوبي كوريا واليابان. فجميع هذه الأزمات وراءها أمريكا، وهي في حال من الضعف والتراجع، وقد حان أوان نزولها عن «عرشها» الذي تربّعت عليه بعد الحرب العالمية الثانية، واستغلته لتفرض الدولار سيّدا على العلاقات التجارية والمالية العالمية، ممّا جعلها تطبع الدولارات بلا غطاء ولا حساب. وجاء دونالد ترامب ليعلن «أمريكا أولاً»، وراح يبتزّ أغلب دول العالم، وينزل العقوبات ضاربًا عرض الحائط بالقانون الدولي والهيئات الدولية، وبمصالح كل الدول تقريباً. فكل الدول الكبرى، وبتفاوت، طبعاً، تريد رفع هذه السيطرة الغاشمة السياسية- الدولارية- المالية التي تهدّد بالعقوبات والحصار ودفع الأتاوات والخوات (المعاصرة)، وتشيع الفوضى العالمية وتهدّد الإنسانية بالكوارث.

المشكل الذي لا تتنبه له الإدارة الأمريكية؛ أنها تفعل كل ذلك في الوقت الذي لم يعد وضعها في ميزان القوى العسكري والاقتصادي والسياسي والتقني، يسمح لها باستمرار ما كان بعد الحرب العالمية الثانية والحرب الباردة؛ فالأرض راحت تميد تحتها قبل هجمة كورونا وفي أثنائها، فكيف ما بعد كورونا؟ كل الدلائل تشير، منذ بضع سنين، إلى أن الصين تتقدّم بسرعة لتتفوّق على أمريكا بالإنتاج والذكاء الاصطناعي، وروسيا تتقدّم عليها بصناعة الصواريخ البالستية السباقة للصوت أضعافًا، والدول الكبرى تضغط عليها لتتنازل عن عرشها الذي لم تعد

لائقة به، ولم يعد لائقًا بها. ولكن أنّى لها أن تتخلّى عما أخذته بالقوة والقدرة، وما يشبه الحرب في الأقل. فأن يختل ميزان القوى في غير مصلحة أمريكا شيء، وأن تعترف بهذا الاختلال شيء آخر، وأن تتقدّم الصين اقتصاديًا وصناعيًا وتكنولوجيًا وذكاءً اصطناعيًا شيء، وأن تسمح أمريكا لها بأن تمضي بهذا التقدّم شيء آخر. صحيح أن الوضع الدولي بعد كورونا لن يبقى كما كان قبلها أو في أثنائها، ولكنه لا يتغيّر إلّا عبر صراعات ونزاعات وأزمات، قد تجعلنا نترحّم على أيام كورونا.

«نيويورك تايمز»
الأوروبيون فقدوا الإيمان بالقيادة الأميركية للعالم[1]

2020/3/24

كتبت مراسلة صحيفة «نيويورك تايمز» الأميركية في برلين تحقيقاً تناول كيف يرى الأوروبيون تأثير أزمة فيروس كورونا على صورة الولايات المتحدة وقيادتها العالمية. والآتي ترجمة نص التحقيق:

في الوقت الذي انتشرت فيه صور عنابر المستشفيات المكتظة وطوابير العاطلين عن العمل في أميركا، في جميع أنحاء العالم، ينظر الناس على الجانب الأوروبي من المحيط الأطلسي إلى أغنى وأقوى دولة في العالم بعدم الثقة.

وقال هنريك إندرلين، رئيس جامعة هيرتي التي تتخذ من برلين مقراً لها وتركز على السياسة العامة: «عندما يرى الناس هذه الصور لمدينة نيويورك يقولون: «كيف يمكن أن يحدث هذا؟ كيف يكون ذلك ممكناً؟. كلنا فوجئنا. انظر إلى طوابير البطالة. اثنان وعشرون مليون شخص».

وقال تيموثي غارتون آش، وهو أستاذ التاريخ الأوروبي في جامعة أكسفورد وهو أطلسي متحمّس: «أشعر بحزن ويأس».

لقد أدّى الوباء الذي يجتاح العالم إلى أكثر من مجرّد إزهاق الأرواح وسبل العيش من نيودلهي إلى نيويورك. إنه يهزّ الافتراضات الأساسية حول الاستثنائية

---

(1) - موقع الميادين.

الأميركية - الدور الخاص الذي لعبته الولايات المتحدة لعقود بعد الحرب العالمية الثانية كانعكاس لقيمها وقوتها جعلتها رائدة عالمية ومثالاً للعالم.

واليوم يقودها الوباء بطريقة مختلفة: تم تشخيص أكثر من 840000 أميركي مصاب بـفيروس كورونا وتوفي منهم 46464 على الأقل، أكثر من أي مكان آخر في العالم.

ومع ظهور الكارثة، لا يتجادل الرئيس دونالد ترامب وحكّام الولايات حول ما يجب فعله فحسب، بل أيضاً حول من لديه السلطة للقيام بذلك. أثار ترامب احتجاجات ضد إجراءات السلامة التي حضّ عليها المستشارون العلميون، وحقائق مشوّهة حول الفيروس ورد الحكومة بشكل شبه يومي، واستخدم هذا الأسبوع الفيروس لوقف إصدار بطاقات الإقامة الخضراء للأشخاص الذين يسعون للهجرة إلى الولايات المتحدة.

وقال دومينيك مويزي، وهو عالم سياسي وكبير المستشارين في معهد مونتين ومقره باريس: «إن أميركا لم تكن سيئة، بل كانت سيئة للغاية». وأشار مويزي إلى أن الوباء قد كشف عن نقاط القوة والضعف في كل مجتمع تقريباً. لقد أثبت قوة الدولة الصينية الاستبدادية ومنعها لنشر المعلومات لأنها فرضت إغلاقاً في مدينة ووهان. لقد أظهرت قيمة الثقة العميقة لألمانيا وروحها الجماعية، حتى مع التأكيد على إحجام الدولة عن التقدّم بقوة وقيادة أوروبا.

وفي الولايات المتحدة، كشف الوباء عن نقطتي ضعف كبيرتين، في نظر العديد من الأوروبيين، ضاعفتا بعضهما البعض: القيادة غير المنتظمة للرئيس ترامب، الذي لديه خبرة قليلة وكثيراً ما رفض اتباع نصيحة مستشاريه العلميين، وغياب نظام قوي للرعاية الصحية العامة وشبكة أمان اجتماعي.

قال مويزي: «أميركا استعدت لنوع خاطئ من الحرب. لقد أعدّت لهجمات 11 / 9 جديدة، ولكن بدلاً من ذلك جاء فيروس». ويطرح سؤالاً: «هل أصبح لدى أميركا النوع الخطأ من السلطة مع النوع الخاطئ من الأولويات؟».

منذ أن انتقل ترامب إلى البيت الأبيض وحول «أميركا أولاً» إلى شعار إرشادي لإدارته، كان على الأوروبيين أن يعتادوا على رغبة الرئيس غير الرسمية في المخاطرة بتحالفات استمرت عقوداً طويلة وبتمزيق الاتفاقات الدولية، في وقت مبكّر وصف ترامب حلف الناتو بأنه «عفا عليه الزمن» وسحب دعم الولايات المتحدة من اتفاقية باريس بشأن المناخ والاتفاق النووي الإيراني.

ولكن ربما تكون هذه هي الأزمة العالمية الأولى منذ أكثر من قرن حيث لا أحد يتطلّع إلى الولايات المتحدة لقيادة العالم.

في برلين، قال وزير الخارجية الألماني هيكو ماس لمجلة دير شبيغل أخيراً إن الصين اتخذت «إجراءات استبدادية للغاية، بينما تم التقليل من أهمية الفيروس في الولايات المتحدة لفترة طويلة». وأضاف: «هذان طرفان متطرفان، ولا يمكن لأي منهما أن يكون نموذجاً لأوروبا».

لقد قصّت أميركا ذات مرة قصة أمل، وليس فقط للأميركيين. فقد عرف الألمان الغربيون مثل السيد ماس، الذي نشأ على الخط الأمامي للحرب الباردة ، تلك القصة عن ظهر قلب، وآخرون كثيرون في العالم صدّقوها. لكن بعد ما يقرب من ثلاثة عقود، قصة أميركا في مشكلة.

الدولة التي ساعدت في هزيمة الفاشية في أوروبا قبل 75 سنة الشهر المقبل، ودافعت عن الديمقراطية في القارة في العقود التالية، تقوم بحماية مواطنيها بطريقة أسوأ من العديد من الأوتوقراطيات والديمقراطيات.

هناك مفارقة خاصة: أصبحت ألمانيا وكوريا الجنوبية، وهما منتجا القيادة الأميركية المستنيرة في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، مثالان قويان على أفضل الممارسات في أزمة فيروس كورونا.

لكن النقّاد يرون الآن أن أميركا تفشل ليس فقط في قيادة استجابة العالم، ولكن أيضاً تخلّت عن شعبها. وقال ريكاردو هاوسمان، مدير مختبر النمو في مركز التنمية الدولية بجامعة هارفارد: «لا توجد قيادة عالمية ولا قيادة وطنية ولا قيادة فدرالية في الولايات المتحدة. إلى حد ما هذا هو فشل قيادة الولايات المتحدة في الولايات المتحدة».

بالطبع، بعض الدول في أوروبا أغرقها الوباء، حيث كان عدد القتلى نتيجة فيروس كورونا أعلى بكثير كنسبة مئوية من السكان في إيطاليا وإسبانيا وفرنسا مقارنة بالولايات المتحدة. ولكن تم ضربها في وقت أقرب وكان لديهم وقت أقل للاستعداد والتفاعل.

والتناقض بين كيفية استجابة الولايات المتحدة وألمانيا للفيروس لافت للنظر بشكل خاص. وفي حين تم انتقاد المستشارة أنجيلا ميركل لعدم قيامها بدور قيادي قوي بما فيه الكفاية في أوروبا، يتم الإشادة بألمانيا لاستجابتها المنظمة للوباء، على الأقل بالمعايير الغربية، وذلك بفضل نظام رعاية صحية عام قوي، ولكن أيضاً استراتيجية اختبار جماعي وقيادة سياسية موثوقة وفعالة.

فعلت السيدة ميركل ما لم يفعله السيد ترامب. لقد كانت واضحة وصادقة بشأن المخاطر مع الناخبين وسريعة في ردها. لقد حشدت جميع حكّام الولايات الـ16 خلفها. هي عالمة فيزياء مدربة، اتبعت النصائح العلمية وتعلّمت من أفضل الممارسات في أماكن أخرى.

منذ وقت ليس ببعيد، اعتبرت السيدة ميركل قوة سياسية مستهلكة، بعد أن أعلنت أن هذه ستكون ولايتها الأخيرة. الآن بلغت معدّلات تأييدها 80 في المائة.

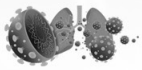

قال غارتون آش: «لديها عقل عالمة وقلب ابنة القس». وبسبب تعجّله لإعادة ترشيد الاقتصاد في سنة انتخابية، عيّن ترامب لجنة من رجال الأعمال التنفيذيين لرسم مسار الخروج من الإغلاق.

تود ميركل، مثلها مثل الجميع، أن تجد مخرجاً أيضاً، لكنها حذّرت الألمان هذا الأسبوع من توخّي الحذر. إنها تستمع إلى نصيحة لجنة متعدّدة التخصّصات من 26 أكاديمياً من الأكاديمية الوطنية للعلوم في ألمانيا. لا تضم اللجنة خبراء طبيين واقتصاديين فحسب، بل تشمل كذلك علماء النفس السلوكي وخبراء التعليم وعلماء الاجتماع والفلاسفة والخبراء الدستوريين. وقال رئيس الأكاديمية جيرالد هاوج، الذي يرأس اللجنة الألمانية: «إنك بحاجة إلى نهج شامل تجاه هذه الأزمة. سياسيونا يحصلون على ذلك».

اعتاد هوغ، عالم المناخ، على إجراء الأبحاث في جامعة كولومبيا في نيويورك. وقال إن الولايات المتحدة لديها بعض من أفضل وألمع العقول في العالم في مجال العلوم. وأوضح أن الاختلاف هو أنه لم يتم الاستماع إليهم. وأضاف «إنها مأساة». وحذّر البعض من أن التاريخ النهائي لكيفية أداء البلدان بعد الوباء لا يزال بعيداً جداً عن الكتابة.

وقال غارتون آش، أستاذ التاريخ، إن الوباء هو نوع محدد للغاية من اختبارات الإجهاد للأنظمة السياسية. لم يتغيّر ميزان القوة العسكرية على الإطلاق. لا تزال الولايات المتحدة أكبر اقتصاد في العالم. ولم يكن من الواضح

تماماً ما هي المنطقة العالمية الأكثر استعداداً لبدء النمو بعد الركود العميق. وأضاف: «ستواجه جميع اقتصاداتنا اختباراً رهيباً. لا أحد يعرف من سيخرج أقوى في النهاية».

كتب بنجامين حداد، وهو باحث فرنسي في المجلس الأطلسي، أنه بينما كان الوباء يختبر القيادة الأميركية، فإن «من السابق لأوانه معرفة» ما إذا كان سيحدث أضراراً طويلة المدى. وقال حداد: «من المحتمل أن تلجأ الولايات المتحدة إلى موارد غير متوقّعة، وفي الوقت نفسه تجد شكلاً من أشكال الوحدة الوطنية في سياساتها الخارجية فيما يتعلّق بالمنافسة الاستراتيجية مع الصين، والتي كانت تفتقر إليها حتى الآن».

وأشار مويزي إلى أن هناك ورقة جامدة أخرى على المدى القصير. تجري الولايات المتحدة انتخابات في تشرين الثاني / نوفمبر المقبل. وقد يؤثّر ذلك، وأيضاً عواقب الأزمة الاقتصادية الأعمق منذ ثلاثينيات القرن الماضي، على مسار التاريخ. فقد أدّى الكساد الكبير إلى ظهور أميركا الجديدة. ورأى مويزي أن فيروس كورونا قد يقود الولايات المتحدة إلى تبنّي شبكة أمان عام أقوى وتطوير توافق وطني حول الرعاية الصحية التي يسهل الوصول إليها.

وقال مويزي: «الأنظمة الديمقراطية الاجتماعية في أوروبا ليست أكثر إنسانية فحسب، بل إنها تجعلنا أكثر استعداداً وملاءمة للتعامل مع أزمة كهذه من النظام الرأسمالي الأكثر وحشية في الولايات المتحدة».

قد يخشى البعض أن الأزمة الحالية يمكن أن تعمل كمسرع للتاريخ، مما يسرع من تراجع نفوذ كل من الولايات المتحدة وأوروبا.

قال مويزي: «في وقت ما في عام 2021 سنخرج من هذه الأزمة وسنكون في

عام 2030. سيكون هناك المزيد من آسيا في العالم وأقل من الغرب».

وقال غارتون آش: إن الولايات المتحدة يجب أن تأخذ عبرة عاجلة من سلسلة طويلة من الإمبراطوريات التي صعدت وسقطت. وأضاف: «بالنسبة للمؤرّخ، لا شيء جديد، هذا ما يحدث. إنها قصة مألوفة للغاية في تاريخ العالم أنه بعد فترة معينة من الوقت تنخفض القوة». وأوضح: «أنت تراكم المشاكل، ولأنك لاعب قوي، يمكنك تحمل هذه الاختلالات لفترة طويلة.

دروس كورونا وإعادة ترتيب الأخلاق من الطموح الفردي إلى الصالح العام[1]

تقول الكاتبة سلمى بلحاج إنّ العالم اليوم يتداول بتوقيت كورونا خطاباً مضاداً للعادة، حيث يتوجّه قادة العالم إلى شعوبهم بنداء مضاد للثقافة السائدة، التي كانت تتمحور كثيراً حول مفهوم الواجب والمسؤولية إلى مرحلة الحديث عن «الانضباط الذاتي وعن القرار الهادئ». وهي برأي الكاتبة، خصال لم نعد نميل إلى تقديرها وتثمينها مؤخرًا. فأحد الأشياء التي نقدّرها في الحياة الحديثة هو الحق في الحياة والحرية والسعي وراء تحقيق السعادة.

تقول الكاتبة: إن فكرة أن يكون لكل منا الحرية في متابعة طموحاتنا ورغباتنا طالما أننا لا ننتهك حقوق الآخرين في القيام بنفس الشيء هو جزء من الحجر الأساس للديمقراطية الليبرالية، فمنذ فرويد، كنا مقتنعين بأن أعمق دوافعنا، سواء أحببنا ذلك أم لا، هي التي تحدّد من نحن، وأن قمعها أمر ضار لنا ونحتاج بطريقة ما السماح لها بالعثور على منفذ تظهر من خلاله.

لم تعد فكرة ضرورة «القيام بواجبك» هي الأساس القوي للمجتمع فحسب، بل مطلبًا أخلاقيًا باهتًا ورماديًا، إنّنا أمام ملاحظة متكرّرة وهي أنه في العالم الحديث لم يعد لدينا فكرة مشتركة عن ماهية الحياة الجيدة، بل نحن مدعوون جميعاً لبناء كل واحد فينا نسخته الخاصة به.

(1) إيلاف (موقع سعودي).

ويشير عالم الاجتماع الألماني هارتموت روزا إلى أنه في حين أن هذا الأمر قد يكون صحيحًا، إلا أننا لدينا اتفاق عالمي تقريبًا على الشروط الضرورية المسبقة لهذه الحياة المتميّزة بالتسارع والتغير المستمر نحو الهاوية بالإقبال على كل ما هو مادي. إذ مقياس الحصول على وجود سعيد وجيد، أياً كان شكل هذا الوجود الذي تريده، فأنت بحاجة إلى ما يكفي من المال والأصدقاء والمعرفة والصحة والحقوق لتحقيق كل ذلك. «تأمين الموارد التي قد تحتاجها لتعيش حلمك، مهما كان نوعه. هذه هي الضرورة العقلانية الغالبة للحداثة « والنتيجة أن كل واحد منا يتنافس على الموارد التي تسمح لنا بأن نعيش نسختنا الخاصة من الحياة الجيدة.

الآن، كل هذا التصوّر خرج عن رؤية أقدم للمجتمع وُجِدت في التقليد الكلاسيكي لأرسطو وأفلاطون واستمرّت إلى حد ما في العالم المسيحي، واعتبرت أن ضبط النفس أمر حيوي لمجتمع صحي. فقد كتب القديس بولس، على سبيل المثال، عن الكيفية التي يجب أن يكون بها القادة «مسيطرين على أنفسهم، وصالحين، ومقدّسين ومنضبطين». في هذا التقليد الأخلاقي لا يمكن إبطاء الانجراف المستمر نحو الاستبداد إلا بالفضيلة وحكم الذات وممارسة الرقابة الذاتية نحوها. كانت الحكومة من أجل «البوليس» ممكنة فقط مع الاستقلال الذاتي. لم يُنظر إلى الحرية على أنها حرية لتحقيق الأهواء ولكن حريّة التحرّر من الأهواء والانفعالات – التي تفهم على أنها عواطف واندفاعات لا يمكن التنبّؤ بها، وعاصفة تزعج الروح وتشوّه وضوح الرؤية التي تأتي من قلب هادئ ورأس واضح. كانت هناك حاجة للسيطرة على تلك الحوافز الداخلية بدلاً من الإستسلام لها. وكانت هذه السيطرة تكون أفضل حين تفرضها الذات على نفسها بدلاً من أن تنظّمها الدولة بطريقة فوقية.

في وقت ما، كان يمكن اعتبار هذا بمثابة الفرق بين وجهات النظر المحافظة والتقدّمية للأخلاق، أو بين وجهة نظر اليمين واليسار. ومع ذلك كما أظهر باتريك دينين في كتابه الذي يحمل عنوان «لماذا فشلت الليبرالية؟»، أننا نظهر في هذه الأيام جميعًا تقدّميون، حيث تنظر الديمقراطيات الليبرالية الحديثة إلينا جميعًا كأفراد مستقلين يجب تحريرهم من قيود الواجب أو مطالب الآخرين، واتباع رغباتنا بدلاً من ذلك، مع فارقٍ وحيد هو أن اليمين يرى السوق والحد الأدنى من تدخّل الدولة كمفتاح للتمكين من هذه الحريات الشخصية، في حين يرى اليسار أن سيطرة الدولة وتنظيمها أنها الطريقة التي سيتم بها إنشاء هذه الحريات وحمايتها.

تضيف الكاتبة في الأسابيع القليلة الماضية، رأينا شيئًا غير عادي. فدون الكثير من التهديد القانوني خضعنا طوعًا للامتناع الشديد عن ممارسة ما وهبه لنا المجتمع الحديث من حريات فردية، وحرمنا أنفسنا من الحق في الاختلاط بحرية، والذهاب إلى الأماكن العامة مثل الأسواق والحانات والمطاعم، أو الذهاب للملاعب لمشاهدة الرياضة الحية، والمصافحة، والسفر إلى العمل، وبينما كنّا نمر في هذه الفترة من النكران الجماعي الذاتي، وقمع طموحاتنا ورغباتنا الشخصية، كنا نتعلّم كيفية إعادة توجيه رغباتنا الشخصية من أجل خير أكبر، والتضحية بما نود عادةً القيام به من أجل خير الجميع. نحن نتعلّم الآن أنه لكي يعمل المجتمع وينجح في درء التهديدات التي تواجهه، فإن عليه أن يجعل من تحديد أولويات الخيار الفردي وحده أمر غير كاف.

تقول الكاتبة: إنه لا يمكن للمجتمع البقاء على قيد الحياة إذا سعى كل واحد منا إلى تحقيق أهدافه التي اختارها لنفسه بشكل مستقل عن الجميع. علينا ممارسة سياسة ضبط النفس، و«الانضباط الذاتي»؛ لنتعلّم القدرة على التضحية

برغباتنا الخاصة من أجل المجتمع الأوسع. لمواجهة التحدّيات التي يحتمل أن تكون أكثر خطورة من تغير المناخ، أو القضاء على الفقر العالمي، على سبيل المثال، سوف نحتاج إلى ممارسة أكبر قدر وأطول تمرين في ممارسة سياسة ضبط النفس.

فإذا كنا سنعود إلى ما اعتدنا عليه في الماضي القريب، أو ما إذا كنا سنستعيد شيئًا من التوازن بين متطلّبات الطموح الفردي والصالح العام. إن مفهوم أننا متلقون للخير الذي لم نخلقه، الرائج في بعض الديانات» يعلّمنا أن نقول» لا «لعدم التقوى وللأهواء في العالم، وعلينا أن نعيش بطريقة تمكّننا من السيطرة على الذات، ذات مستقيمة وتقية تعيش في هذا العصر الحالي. «ولكن ما لم نتمكّن من تعلّم العيش حياة منضبطة ومضبوطة، مثل تلك التي يجب أن نعيشها الآن، فلن يكون هناك مستقبل كبير لكوكبنا أو للأشخاص الذين يعيشون عليه. ربما يمنحنا الفيروس التاجي مسارًا سريعًا في عالم أخلاقي مختلف - عالم يمكن أن ينقذنا من ذواتنا التي تربت على أساس تقدير أخلاقيات مصالحها الذاتية على حساب أخلاقيات المصلحة الجماعية.